
وجدانيات
وجدانيات
أسامة أنور عكاشة
تباريح خريفية
مع تحياتي: علي مولا

إهــــداء

إلــى... ... ...

أيـــامٍ كانـــت ولـم تعـــد...

.. وأيـــامٍ جـــاءت ولـم تســـعد...

.. وأيـــامٍ قـد تقتـــرب... وقـــد تبتـعـــد...

أسامة أنور عكاشة

تقديـــم

وهاهو الكتاب الثالث بين يديك عزيزى القارئ ... وإذا كنت تكبدت المشقة أو ساورك الملل وأنت تقرأ الكتابين السابقين فعفوا ... لأنك ستجد فى الثالث امتداداً لما شق عليك وأصابك بالملل ...

أما إذا كنت قد وجدت فى وجدانياتى ماراق لك ووجد لديك صدى طيباً فدعنى أنتهز الفرصة لأقدم لك ما بقى من الرحلة ...

وما يهمنى فى الحقيقة ... أو قل أنه يؤرقنى فهو أن يؤخذ هذا اللون من الكتابة على منحى لم أقصده على الإطلاق ... وهو التسلية أو الترويح .

وأبادر بالقول بأننى لست من التسلية أو الترويح أو الكتابات الخفيفة عموماً ... فلها بلا شك جمالها الخاص ... لكنى فقط أنبه لحقيقة أن الكتابة فى هذا اللون - وهو جديد فى زعمى - بكل مشقتها بعيدة تماما عن العفوية والتلاعب بالألفاظ واصطناع الطرافة ...

فأنا لم أكتبها بهدف أن أسلى أو أزجى الوقت ... ولكنى كتبتها قاصداً أن أتلمس بقلمى أوتاراً فى قلب القارئ ... تعيده إلى لحظة ذكرى ... أو خفقة هاربة من سجن القلب ... أو ربما ترسم مجرى على الخد لدمعة حنين تشفى بعضا مما خلفته الأيام من جراح ... فإذا حدث هذا فقد وفقت ولم أضيع وقت القارئ ولامداد قلمى .

أسامة أنور عكاشة

جمرة!..

أمسكتها . . . طويتها فى كفى وأطبقت عليها أصابعى . .

لم تحرق الجلد . . . ولم تطلق آهة الألم من صدرى . . .

فقد رحلت قديماً إلى التبت . . . وصعدت إلى سقف العالم . . .

وقضيت سنينا فى وادى القمر الأزرق . . .

تعلمت كيف أروض روحى على التخلص من سجن البدن . . .

كيف أسير على وجه الماء . . .

وكيف أطير . . . وأغادر سطح الأرض . . .

وخطوت بقدمىّ على الجمرات المشتعلة . . .

ثم رجعت . . . وأتيت إليكم . . .

كنتم فى نفس الكهف . . .

تتبادلون نفس الهمسات الثكلى . . .

وتتناوشكم خفافيش الظلمة وهوام الجُحر . . .

أعينكم لاتبعد أبعد من كف اليد . . .

لايجرؤ فيكم من يخرج صوب الباب . . .

تخشون نهاراً يسطع فى الخارج . . .

وتخافون الزهر . . وأشجار الغاب . . . وطيور البحر . . .

أطلقت الصرخة كى أوقظكم . . .

أشعلت النار . . . بزيت القنديل .

ولتضىء بكهفكم الليلة وتدفعكم نحو مسار الفجر . .

ألقيتم بحجارة غفوتكم فى وجهى . . .

وغرستكم فى ظهرى طعنات الغدر . . .

ووضعتم فى دربى جمرة . . .

أمسكت الجمرة . . .

لم تحرق جلدى . . . لم أصرخ . . .

«فالاما» أخبرنى حين نويت العودة . . .

أعطانى زاد الرحلة . . . كلمة . . .

علمنى أن الكلمة . . . جمرة . . .

من يطبق أصابعه عليها يملك كلمات السر . . .

يعرف كيف يخوض الحرب . . .

يعرف كيف يقود الفرسان . . .

ويحقق بهم النصر . . .

الكلمة جمره . . .

والجمرة قد تشعل ناراً . . .

والنار تضىء . . . فى ليل القفر . . .

حتى لو حرقت بعضا من جلد . . .

قد يتجدد . . . ويجدد مابلى بسنوات العمر . .

كلمات من دفتر قديم :

تبكى على الدنيا وما من معشرٍ   جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا

فالموت آتٍ والنفـوس نفـائس   والمستغر بما لديه الأحمق

«أبو الطيب المتنبى»

حبـــات!

فى أرض الأعشاب سرت طويلا . . .

أيمم شطر الشمس . . . أبحث عن خيط . . .

حبات قلادتك تثقل جيبى . . . كانت قبل الأمس . . .

وبالأمس انفرطت منى . . .

وسهرت الليل ألملمها . . . فى ضوء القنديل الخافت . . .

. . . رحلت أقمارى عند غروب الشمس . . . لم تظهر . . .

أقمارى كانت حبات اللؤلؤ . . . فى حلمى الساهر حتى الفجر . . .

ولدت فى مطلع يوم . . . عند رحيل الليل . . .

عاشت عمراً من أيام أو سنوات . . .

وانتظمت فى خيط الأشجان المخبوءة . . . صارت عقداً . . .

أهديت العقد إلى جيدك . . .

ورسمت الحلم على الحبة تلو الحبة . . .

عبثت بأصابع نزقك . . .

لهوتِ فمزقتى الخيط . . .

وانفرطت حبات اللؤلؤ . . . ضاعت بين الأعشاب . . .

عبثاً تحدوكى الآمال . . .

فى ضم الحبات المنفرطة . . .

لتعيد صياغة ما كان . . .

. . . .

لكنى أعرف كل خفايا المرج المعشب . .

حتى فى ظلمة ليل لايقمر . . .

تمتد يداى لتعثر بالحبات البيض!

ألقيها فى جيبى . . .

وأسير الآن . . . صوب شعاع الشمس . . .

أجد الخيط فى أيكة عوسج . . .

وأنا لا أخشى الأشواك . . .

أقتحم الأيكة بجسارة . . ! . .

ألتقط الخيط بأصابع مجروحة . .

تتساقط قطرات الدم . . .

لتصبغ حباتى البيضاء . . .

يصبح لون اللؤلؤ أحمر . . .

وتصنع منه عقود العشاق . . .

مازلت أراوغ أحلامى . . .

جيبى لايثقله شىء . . .

فالثقب أضاع الحبات . . .

والخيط تهادى فوق العشب . . .

وغداً . . . تحمله رياح الغرب . . إلى حيث الأشواك .

صبوة

رغم قدوم الصيف . . . لم تخل الأركان من بقايا الثلوج . .

لكنى حين نظرت . . . وجدت القطرات تتجمع فى الحنايا لتتساقط على الخدين دموعا . . .

يذيب الدمع بقايا جليد . . .

تتوقد فى الأطراف حرارة صيف قد كان قبل الصيف المقبل . . .

ترتجف الأردان بتلك الرجفة . . .

حين شببنا عن طوق الأطفال . . . وهزجت فى الصدور أنشودة ذاك العربيد حق أمسك قيثارا واعتلى قمة تلة . . . عند الكرمة . . . تتساقط ألحان الغاب . . . حبات من كرم بللورى تتكسر فى جوقة ألوان وردية . . .

حين فزعنا من هول الرجفة . . .

تعتصر قوانا فى قبضة لحظة . . . لكننا نرقد بغلالة دمع بين الأجفان . . .

تتساقط حارة فوق وسادة . . .

تلمع بين سواد الإغماض ونور الصحوة . . . كنجيمات تخفق . . . تتوتر كالصدر العاشق . . . والهمسة كالنجمة ترعش أشباح الليلة . . .

نبكى ندماً . . .

نضحك فرحا . . .

نصرخ حيا . . .

نتنسم عطر الموسم . . .

حين يذيب لهيب الصيف عصير الزهر الوحشى . . . يستقطر منه رضاب الزمن الفوار . . .

نلعق شهد العنقاء . . . نشرق بالأحلام . . . نغص بمر الصحوة . . . يوقظنا فجر بارد . . . تتسلل أصابع الليل الدافئ . . . تغمس نفسها فى نبع ثلجى . . . تلعق أطرافها . . . تمررها فوق جبين الهبة سعيد الصبوة . . .

. . . أذكر نفس الرحلة ذات شتاء . . .

غطى الثلج قباب العمر . . .

ونأوى خلف الأبواب المرصودة . . . المختومة بالطلسم . . .

ننظر خلف زجاج . . . غبش ضباب الأنفاس . . .

نرنو للدرب الصاعد نحو القمة . . . والدرب الهابط حيث السفح . . .

نرسم الذكريات حكايا تبدد ساعات الانتظار . . .

نتبادل ضحكات سرية . . .

نهمس فى الآذان بنكات لاتضحك . . .

نستجدى الدمع . . حزناً . . . ندماً . . . جوعاً . .

لم يبق لدينا من مخزون السنوات ما نقتات عليه . . .

فلنشعل ناراً . . . فلننفخ فى أخشاب محترقة . . . عل الصبوة مخبوءة . . .

تحت رماد .

كلمات من دفتر قديم :

وقائلة : إن مُت فى طلب الصبا فلابد أن تحصى عليك ذنوب

فرم توبة قبل الممات فإننى أخاف عليك الله حين تؤوب

بشار بن برد

لم تعد...!

قالت : لم تعد أنت . . أنت! . .

قلت : لا ينزل الإنسان النهر مرتين! .

قالت : تعترف بأنك قد تغيرت! . .

قلت : سبحانه وحده . . . يغير ولا يتغير . .

قالت : تحول مشاعر المحب أقسى من طعنه بالظهر . . .

قلت : لم أعترف بتبدل مشاعرى . . . فأنا من هؤلاء الذين إذا قدروا على الحب أعجزهم عن الكراهية . . . إنما قد تغيرت فى أشياء أخرى . . .

سألت : أية أشياء؟! . .

أجبت : صفيت عقلى من زخم العاطفة وأطلقت فكرى من إسار مشاعرى . . .

أصبحت أقدر على أن أفكر على إيقاع دقات الزمن وليس على

إيقاع دقات القلب . . . الزمن ياطفلتى هو الحقيقة التى لا أستطيع تجاوزها . . . ولم يستطع غيرى أن يراوغها . .

اندهشت : وما شأن الزمن بحديث التغير؟

ضحكت : أو ليس التغير فعل زمنى . . يتم عبر تحول اللحظة وتوالى الساعات وتقادم الأيام وكرّ السنين؟ . .

شردت بضيق : أهى عودة للحديث القديم عن فارق السن؟! ألم نتفق قبلاً على أن للحب زمنه الخاص؟ . . .

. . . وأطلق زفرة حارة تنبئ عن يأس واع يعرف طريقه . . . وقال :

ـ كان ذلك فى البدايات . . . إذ كانت العاطفة . . ومشاعر الوقوع فى الحب تذلل كل العقبات وتبعد نوازع المنطق ومحاذير العقل! يومها اتفقنا على أن زمن الحب لا يقاس بعدد السنين . . . أطبقنا جفوننا على حلم الإفلات من حتمية الزمن الأرضى . . . وتمنينا لو لم نستيقظ من غفوتنا . . . ولكن . . .

لأن لكل غفوة زمنها ـ طال أو قصر ـ فقد كان لابد أن تأتى اليقظة . . وقد جاءت . . . ربما سبقت إلىّ وأحدثت ماتتهميننى به من تبدل المشاعر . . . ولو فكرت قليلاً لأدركت أن مشاعرى تبدلت إلى الأعمق والأقوى والأعقل . . .

الآن أستطيع أن أكون محباً حقيقياً . . . بلا أنانية . . . بلا استعذاب لمشاعر إنسانة ستخطو إلى مدارج موسمها الصيفى الحار فى نفس اللحظة التى تتساقط فيها أوراق خريف توسد الأرض لموسم شتاء بارد لا يصلح إلا لاجترار الذكريات . . .

هاهو الزمن الأرضى يفرض قوانينه بلا رحمة . . .

ليته كان . . .

ليته لم يجمعنا فى لحظة اختلال عقربى الساعة . . .

ليته كان منصفاً أكثر . . . فجمعنا . . على استقامة خط العمر . . .

لكنه ياطفلتى . . . زمن عابث . . .

همست بحزن : أهو فراق؟ . . .

بل هو الزمن يجرى قوانينه!

كلمات من دفتر قديم :

أمـــا هواكِ فلم نعـــدل بمنهلة

شــرباً وإن كــان يروينا فــيظمــينا

«ابن زيدون»

أرحـــل!

أرحل قسراً للمجهول . .

ومتاعى أردفه خلفى . . . بعضاً من ذكرى . . . بعضاً من هشيم . .

وحقيبة أسفارى يملؤها رماد الحسرة . . .

والجـرح النازف يصـرخ فى الأحـشـاء . . . «مـاذا فـعلت بقلبك؟ . . .» .

بيدى اعتصرت الآهة فى صدرى . . . وحشوت الجرح رماداً . . .

من أجلك كان رحيلى! . . . ولعلك تعرفين . . .

حبك لم ينزع عن جبينى إكليل الشوك . . . لم ينزع نصلاً حاداً غرسته الأيام . . .

. . . .

خدعتنى أوهام الفرسان . . .

امتشق حساما أطعن أشباحاً وطوا حين هواء . .

أفدى محبوباً لم يك يجتاح فداء . .

أقبض على الرمال . . . تفر من بين أصابعى . . . أجثو باكياً على شاطئ الحرمان تلطمنى أمواج الأشواق! . .

حطمت بنفسى أجمل ما صنعت يداى . . . وجلست بعدها فى برجى الموحش أطل على عالمى الذى كان . . .

تلك الشرفة . . وذاك السور الأزرق . . . وغلالة فجر تتماوج . . . تلمس أوتاراً فى القلب . . . تعزف فى جوف الصبح نداء لليوم الموعد . . . وبيدينا نغزل بعضاً من أحلام الغد . . .

أهبك كل سنين العمر . . . أعتصر دماء الأشواق المأسورة . . . وأقطرها كرماً فى شفتيك . . .

أقطف كل ثمار فراولتنا البرية . . أملأ منها كفى . . . أقربها من فيك . . . نملأ منها قواريراً لليوم القادم . . .

لم يبق إلا حطام زجاج . . . أدوس عليه وأنا راحل حتى تدمى قدماى . . .

. . . ألملم قطرات الدم . . . أصنع منها مداداً يملأ قلمى كى أكتب . .

أكتب قصة عامين . . .

بحسابى كانا عمراً . . .

فأنا عشت العمر مرتين . . .

أعود الآن لعمر الجدب . . . عمر الأشياء العادية . . . حيث تموت الأيام فى هوة السأم . . . ويتثاءب النهار فى جوف الليل . . . يحولنى مرة أخرى إلى مجرد كائن . . . يتحرك . . . يعبر بوابات الدرب المحتوم . . .

يقف أخيراً عند بوابة الرحيل . . . لاينظر خلفه . . . لايعرف كيف يكون الانتظار فلا شىء هناك سيأتى . . .

ما أتى قد فات . . .

تبقى فقط صورة عامين . . .

تقطر بالدمع والندم . . . وكلمات باهتة على ظهر الصورة . . .

كان ما كان . . .

فى ليلة صيف موعودة . . .

دق الباب . .

ودقت خفقات القلب . . .

وأضاع الإنسان الأحمق . . . فرصة عمر! .

كلمات من دفتر قديم . . .

«إذا انحنيت رأسك أيام
أمام إنسان فتأكد أولاً أنه
لايمسك سيفاً . . .» .

مثل يابانى

علاقة

قطع من المخمل الرمادى تتناثر راكضة لتبدو من خلالها ألوان غسق خريفى حزين . .

. . . مساحات الجراح المغسولة بدموع ملحية المذاق تكتنف ساعات تدق فى القلوب الوحيدة . . .

. . . وأغنية مكسورة الإيقاع تنهنه فى استعذاب غامض للألم . . .

والألم لا ترسمه ريشة . . .

لاتشرحه كلمة . . . أو بيت شعر . . .

الألم يغنى فقط . . .

فى عمق الأركان البعيدة تجلس على صخرة تمسك بالقيثار . . .

غادة إغريقية . . . أعطتها عرافة دلفى مفتاح الأسوار . . .

سكبت كل الأسرار فى شفتى «نارسيس» . . .

لم يسمع نارسيس نغماً يشجى أذنيه . . . ألقى بالقيثارة وسط الأمواج! . .

. . . .

تغير لون المخمل . . . صار بلون الليل المقمر . . . صار وسادة . . . تتمرغ فيها خصلة شعر . . .

أعطتها ليلى للمجنون . . . تذكاراً لقصيدة حب . . .

تتمزق فى صدر الشاعر لوعة بعد . . .

تلك المريضة بالعراق . . . تزفر فى الحمى برسالة يحملها طائر . . .

والطائر لم ينبت بعد ريش فى جناحيه . . . طار وطار . .

ارتطم بصخور الشاطئ . . . لم ينجز وعده . . .

. . . وانفصمت أوتار العود . . .

لم يعد القمرى يغنى . . .

جلست ليلى على باب الخيمة . . . ترنو للأفق الصحراوى . . .

تلمح بحيرات السراب . . . ترفدها بحيرات المساء . . .

وجه يتقلب فى الأغوار . . . يتعرج فوق عباب النهر . . . .

تأتى من غفو الأحلام سفينة . . .

تحمل فوق السطح وجوها سمراء . . .

. . . عند الدفة يجلس زنجى . . .

على وقع طبول سرية يشدو بأهزوجة . . .

«أعرف أنى سوف أعود . . .

وحبيبتى تغزل لى رداء من زهر . . . وتنتظر . . .

وأنا أعرف سر الأمواج . . . وسر مدار الأرض . . .

يوماً تقذفنى من حيث بدأت . . . يوماً توصلنى إلى حيث بدأت . . .

فى الجبهة ميسم حسن وضاء . .

يلقى نوره فوق النهر . . .

. . . فى أقرب مرفأ . . . يشرق ضوء الصبح . . ويوقظ كل الأشياء

. . . لتكون هناك . . . بين الشىء وشىء آخر . . . ثم علاقة . .

كلمات من دفتر قديم :

لابقومى شرفت بل شرفوا بى

وبنفسى فخرت لابجدودى

«المتنبى»

على الرمال

اكتظ الشاطئ فى تلك النهار الحار بمئات الأجساد التى تجاورت فى شبه التصاق حميم تحت مظلات البحر . . . واختلطت الأنفاس برائحة العرق والطعام والهواء المشبع باليود كما تعالت أصوات الناس والموج وضربات الكرة فى ألعاب الشاطئ . . .

كان الطنين قد صم أذنيه . . . وزكمت الروائح أنفه فكره المشروع كله . . . وانتابه سخط لاذع على زوجته التى انهمكت فى شجار روتينى مع الأطفال الذين تبعدهم ألعابهم عن ناظريها . . . نظر إليها من بين رموش جفنيه اللذين كادا أن ينغلقا ولكنه ترك لهما انفراجة يسيرة . . . أدهشه إحساسه بأنه يراها لأول مرة . . . امرأة مختلفة تماماً عن تلك التى تزوجها منذ عشرين عاماً . . . لم تكن بهذا الترهل فى مناطق والاكتناز فى مناطق أخرى . . ولم يكن ماكياجها بهذا التعقيد والتصنع . . . ثم تلك التقطيبة الثابتة بين حاجبيها وتعبير الغضب والملل الماثل فى عينيها . . . وهناك

أيضاً بحة فى الصوت لم تكن به قديماً . . كان صوتها حينذاك ناعما كملمس المخمل . . .

اكتشف فجأة أنه كف من زمن طويل عن «رؤية» زوجته . . . ترى؟ هل كفت هى الأخرى عن رؤيته؟ بالتأكيد . . .

فمنذ سنوات وهما يتبادلان الحديث دون أن تلتقى عينا أحدهما بالآخر . . . فى الحقيقة هما لا يتبادلان . . . ولايتحاوران . . . لم تعد هناك تلك العملية الديناميكية الجدلية فى علاقتهما . . . فقط . . . تتناثر بينهما الكلمات ناعسة متثائبة تتلون بألوان الروتين اليومى والاحتياجات العادية . . .

فها هو يسمع صوتها يخترق الضجيج حوله لتقول :

ـ غداً نذهب إلى شاطئ آخر من الشواطئ الغالية التى يدفع روادها نقوداً كى يدخلونها . . .

. . . وحين لم يدل برد . . . استمرت تتحدث دون أن تنظر إليه . . .

ـ لقد جئنا فى إجازة . . . أليس كذلك؟ . . فلننفق بعض النقود . . . كى نستمتع . . .

أدرك أنها فى الواقع تتحدث إلى نفسها ولا تنتظر منه أن يرد بل لعلها لاتنتظر أن يسمع . . .

ـ إنها مرة وحيدة كل عام . . . وعلينا ألا نبخل على أنفسنا !

يا ساتر . . . هؤلاء الأولاد بجوارنا ثقلاء الظل إلى درجة تقود للجنون . . . الولد يرفس ظهرى بقدمه وأمه تراه وتبتسم له . . .

. . . بدأ يحس بالخطر . . . وأصاخ سمعه أكثر . . .

هذا شيء لايحتمل . . . الولد الثانى يذرو الرمال علىّ . . .

أدرك ما سوف يحدث فأكمل إغماض جفنيه وتظاهر بالاستغراق فى النوم . . .

هاهو وجه آخر من الوجوه التى اكتشفها فى زوجته . . . رغبتها العارمة فى الشجار مع الآخرين لأى سبب كان . . .

تلك الفتاة العشرينية الرقيقة التى كانت تحمر خجلاً إذا سمعته يلوم الساقى أو يعنف سائس المرآب وترجوه ضارعة ألا يتشاجر . .

هى نفسها المرأة التى تتبادل الآن أقزع الشتائم مع جارتها تحت المظلة الأخرى . .

وكان أكثر ما يخشاه أن توقظه من نومته بطريقتها الفظة لتشركه فى المعركة مستدرجة زوج غريمتها . . .

وقد حدث ما يخشاه . . .

فوجئ بها تهزه مستصرخة . . . أدركنى . . . أن الرجل معها يسبنى . . .

. . . تثاقل فى استيقاظه المصطنع ورسم عبسة كالحة على وجهه . . . وصاح بالرجل الآخر يعنفه ويتبادل معه قوارص الكلام . . . كان يهمس لنفسه هذا أفضل . . فكل الأشياء تتبعثر على الرمال وتتسرب إلى الأعماق - كمياه البحر . . . وأيام الصيف . . . والذكريات البعيدة . . . والشباب الذى كان .

كلمات من دفتر قديم :

الإنسان أعظم الكائنات . . .
فقط لأنه الوحيد الذى يستطيع
أن يقول ذلك ولاتستطيع الكائنات
الأخرى أن تكذبه!

«جورج برناردشو»

احترام

حدث الأمر فجأة كصاعقة . . . ولم يكن هناك سابقة تبرر حدوثه . . . ولكنه لم يكن فى حاجة لأى تبرير . . . فهو شيء - من وجهة نظر المنطق - عادى جداً ويمكن أن يحدث لأى إنسان!

اعترض صاحبى وهو يحاورنى بأن الأمر ليس فيه أى منطق على الإطلاق . . . وأنه يحس بندم شديد وأسف بالغ لأنه شارك فيه . .

- بل لم تشارك . . . ولم أشارك . . . فقد كنا نجلس متجاورين ولم يتحرك أحدنا خطوة بعيداً عن مقعده . . . لقد كنا مجرد شهود على ما حدث! . .

- بل شاركنا . . . ألم نضحك حتى سالت دموعنا وسقطنا عن مقاعدنا؟ . .

- وهكذا حدث للمئات من الحضور! . .

- إذاً فقد شارك الجميع! . .

- ياعزيزى! إن نوبة الضحك التى حدثت كانت مجرد رد فعل . . . ورد الفعل ليس صانعاً للفعل بل هو ناتج عنه . . . أما المشاركة فهى فعل إيجابى صانع! .

- لاتحاورنى فقد سئمت سفسطتك! وغاية الأمر أن ما حدث كان شيئاً مخجلاً لنا جميعاً . .

- كم أعجب لك ويذهلنى أن تغضب من نفسك ومناكل هذا الغضب . . . وبلا أى سبب . .

- السبب واضح لكل ذى عينين . . .

- وما هو؟ . .

- أن يحدث ما حدث لرجل يكن له الجميع هذا القدر من الاحترام . . .

. . . .

أجل . . . كان صاحبى على حق . . . فالرجل بالفعل يحظى باحترام كامل من الجميع ونجاحه الباهر السريع يضرب مثلاً لكل الشباب . . . وفى سنوات قلائل استطاع أن يستولى على الأسماع والأبصار . . . فهو رجل السياسة البارع وخطيب تهتز له المنابر ومحدث يسحر سامعيه تسانده دعاية ضخمة جعلته بطلا فى أنظار الجماهير ويبدو أنه كان يعد بشكل أو بآخر ليتربع على القمة! .

وقد أعد هذا الحفل الكبير لتكريمه وتقليده وساماً من أرفع أوسمة الدولة . . . وقد تمت كل مراسم الحفل كما قدر لها . . . تقريباً . . .

وتقريباً لأنها لم تكتمل ... فقد حلت الصاعقة فى آخر لحظة ...

كانت الفقرة الأخيرة ... هى الخطاب الذى يلقيه الرجل المحتفى به ...

تقدم إلى المنصة بخطى واثقة جليلة ... ثم واجه الناس بسمته الوقور وعينيه التى تشعان بذلك البريق الأخاذ ... صمت قليلا .. ليترقب الأنفاس تحتبس فى الصدور ... والعيون تتعلق بشفتيه ...

وما أن نطق بأول جملة حتى جاءت النحلة ...

لم يرها أحد حتى استقرت على جبهة الرجل ...

ويبدو أنها المفاجأة ... أو الخوف المرضىّ من الحشرات ... أو الفزع الانسانى الطبيعى أو أى سبب أخر جعل الرجل يقفز قفزته الهائلة فيتعثر بسلك الميكروفون ويسقط على أرض المنصة ويندفع من جيوبه هذا الكم الهائل من الكرات الزجاجية الملونة التى يلعب بها الأطفال .. فينفرط ... وتسقط الكرات أمام حضور الحفل متقافزة تصدر ذلك الصوت الذى تتميز به ... وينفجر الجميع فى الضحك ... ويتحول الحفل إلى مهزلة ...

يقسم صديقى حانقاً ... أن نجمه المحترم كان ضحية مؤامرة ... وأن هناك من دس عليه هذه الكرات اللعينة ووضعها فى جيبه ...

... ولم أشأ أن أزيد حنقه ... فوافقته ولكنى لم أتمالك نفسى من أن أسأله :

ـ ومن جاء بالنحلة؟ ..

صمت صاحبى كارهاً وقد عبس فى تعاسة ... ثم غمغم وهو يكاد يبكى :

ـ ليتنا فقط لم نضحك!

كلمات من دفتر قديم :

يا من جحدت عيناه دمى   وعلى خديه تورده

خدّاك قد اعترفا بدمى   فعلام جفونك تجحده

الحصرى القيروانى

بـريـق

ذرت من خلف الغمام ومضة سحر تلمع فى خاطر شاعر . . .

كانت أغنية . . .

للفجر . . . للشاطئ . . . لزهرة أيلول المنداه بقطرات من صيف راحل . .

رأيتها وحدى لأنها لم تكن موعودة لسواى . . .

وقديما قرأتها رسالة فى سفر الأحلام . . . فى الفصل الرابع حيث يقول حكيم :

«نجمة عشرية تولد فى مقتبل الخريف . . وتوعد لأول من يراها» .

وقد كنت . . .

سهرت ليلتها فى الانتظار . . . فأنا أعرف الموعد «أسقتنى إياه سلافة الرضاب فى عيد الخريف » . . .

فى السائل الرقراق المنساب حتى الثمالة . . . رأيت انعكاسة البريق . . .

وكان الشرط المرسوم على لوح الطلسم . . . أن أودعها صدرى . . . وأعقل دون مولدها لسانى . . . وقد فعلت . . .

وبعيد الفجر . . . قبل أن تتثاءب شمس اليوم الموعود رأيتها . . . أعطتنى كلمة السر . . .

لكن الكلمة حورية تخطر خفراء على زبد البحر . . . تتهادى بعيداً وتعود قريباً . . . تكاد أناملى أن تمسك بخيوط غلالتها . . . وعند حروف اللحظة تتكسر قدرات الوصل . . .

كانت تطلب بعضاً من مهر . . .

كانت تتبدى عروساً للأحلام التى هيضت أجنحتها فى زمن الجدب . . .

تأسو نسمات أيلول جرح الارتطام بصخور الشاطئ . . . ترقأ دمع الباكين الذين رحلوا على طريق الوهم . . .

قالت : مهرى بعض من دماك . . . ففتحت كل شرايين الجوع . . . وتدفقت منى نهراً من حنين . . .

على الشطئان غرست زهرتين . . .

زهرة من ماضى العمر . . . وزهرة عرافة تحكى حكايا الغد . . .

. . . فهلا قبلتى المهر . . .؟

سألت ولم يأتنى الجواب! . . . طفت على الأبواب المأسورة

خلف القضبان أتسول بعضا من حظ . . . حتى حرقتنى الشمس! . .

يختلط بريق النار . . . ببريق النجم . . .

أدعو للغيم . . . وأصلى صلاة استسقاء . . .

. . . قد يأتى القطر . . . ولكن . . . بعد فوات أوان . . .

وأتذكر ما قال الحمدانى . . .

إذا مت ظمآناً . . . فلا نزل القطر . . . .

. . . أغمض عينى عل برق سراب . . . وأغنى همساً . .

. . . فليوقظنى البريق . . . إذا كان ثم بريق .

كلمات من دفتر قديم :

من يهن يسهل الهوان عليه

ما لجرح بميت إيلام

«أبو الطيب المتنبى»

صفقة!

لم يكن هناك أى تفسير لما حدث إلا الصدفة . . .

فأن يلتقيا فى نفس القطار بنفس العربة فى نفس الموعد . . . وأن يجمعهما نفس المقعد . . . فقد بدأ الأمر لكليهما كما لو كان مدبراً . . . لم يقتنع أحدهما بداخله أنها مجرد صدفة . . .

وسواء كانت صدفة أم قدراً مدبراً لحكمة تعلو على منطق البشر . . . فقد جلس «ص» بجوار «س» . . . ولو سألت أحدهما قبلها بدقائق عن آخر شخص يتمنى أن يراه لذكر صاحبه

. . . كان «س» هو القادم أخيراً . . .

نظر فى تذكرته . . . ونظر إلى رقم المقعد . . . وتردد لحظة . . . ثم وضع حقيبة يده على الرف وألقى بنفسه على المقعد دون أن ينظر للآخر . . .

أما «ص» فقد عبس وأشاح بوجهه نحو النافذة مفكراً : «الوغد

علم قطعاً بموعد سفرى وبغرض الرحلة فتبعنى ونوى أن يلازمنى حتى يفشل الصفقة» . .

شرد «س» فى اتجاه مختلف تماماً . . . فهو يحس بالغيظ لأن رقم بطاقة سفره يتيح له أن يجلس بجوار النافذة . . . وقد سبقه الآخر «هذا الصفيق . . . لقد تعمد أن يجلس فى مقعدى حتى يدفعنى لأن أطلب منه التحرك وإخلاء مكانى . . . لكنى لن أفعل . . . ومع ذلك فلا يمكن أن أتركه يحس بمتعة احتلاله لمقعد يخصنى . . »

كان كل ما يحيره أن يجد وسيلة لاستعادة حقه . .

وكان «ص» يتململ فى قلق واضح «لابد أن أجد وسيلة لأمنعه من التدخل فى الصفقة وإفسادها . . » .

سار القطار . . . وكان الطنين المنبعث من العجلات والقضبان يضخم خواطر القلق والغيظ داخل الرجلين! . . .

لقد كانا رفيقا دراسة . . ثم جمعهما السوق . . . فنشبت بينهما منافسة عارمه تحولت بعد قليل إلى صراع شرس لم يلبث أن احتدم ليتحول إلى حقد متبادل وكراهية شخصية بعد أن تبادلا دورات الانتصار والهزيمة . . . واختطاف الصفقات كل من الآخر . . وهاهو «ص» يعانى من آلام فى أحشائه لمجرد تصوره أن «س» يطارد الصفقة التى حرص بكل جهده على إبقائها فى الظل كسر مقدس دون اكتشافه خرط القتاد! . . لم يحس بالحقد على أحد فى حياته كما يحس تجاه الرجل الجالس بجواره . . . ولكنه استرجع فى ذهنه قانون السوق (اليد التى لاتستطيع قطعها . . . عليك أن تقبلها) . . .

التفت لصاحبه :

- يبدو أنى أخطأت وجلست مكانك . . . نستطيع أن نتبادل . . .

- لا أهمية للأمر . . .

انتهى غيظ «س» فى لحظة ولم يعد يهمه أن يجلس بجوار النافذة . . . بل استمتع بدور المتسامح حتى استطاب أن يواصله . . .

- ما أعجب الصدف! . . .

مال عليه «ص» هامساً :

- أعرف أن الصدفة لا دخل لها بالأمر . . . اسمع . . . سأدفع لك مائة ألف تغنيك عن مواصلة الرحلة . . وأنفرد أنا بالصفقة . . . ماذا قلت؟ . . .

• ظل «س» يرمقه وهو يحرر «الشيك» وهو يتلمظ ويتساءل فى أعماقه . . . عن أى صفقة يتحدث هذا الأبله؟ أنا ذاهب لزيارة ابنتى! . . . ولكن . . . لايهم . . . يمكننى أن أزورها فى يوم آخر . . .

كلمات من دفتر قديم :

كل شىء صار مراً فى فمى   بعدما أصبحت بالدنيا عليما
آه من يأخذ عمرى كله   ويعيد الطفل والجهل القديما

«إبراهيم ناجى»

لغو!

رمقه بنظرة حادة فتساءل عن مدى الجدية وقدر الهذر . . . حتى إذا رأى فى عينيه أنه يعنى تماما ما يقول هتف به فى غضب . . . لا . . . ليس غضباً بالمعنى السائر . . . بل كان شيئاً أقرب إلى التساؤل المختلط باستنكار ضمنى . .

ـ تقول أنك تراسل نفسك؟ . .

ببراءة كاملة أجابه :

ـ أجل . . . أفعل هذا أحيانا . . . وإن كنت أمارسه بمعدلات أكثر فى الفترة الأخيرة . . . وآخر رسالة كتبتها لنفسى كانت بالأمس فقط . . . .

صمت الأول وهو مازال يحملق فى صاحبه وتتداعى أفكاره «ماذا حدث له؟ . . أنا أعرفه منذ زمن طويل فقد درجنا على

ملاعب الصبا معا . . . وشببنا سويا . . . ونضجنا فى نفس الوقت . . . صحيح أنه كان يتسم دائماً بالطرافة وغرابة الأطوار . . . وكان يفاجئنا أحيانا ببعض التصرفات التى تدهشنا . . . ولكننا كنا نفهم سريعاً منطقية ما يفعل ونكتشف أنه يفكر بشكل أعمق مننا جميعا . وكثيرا ما غاظنا هذا منه وأحنقنا عليه . . . ولكن . . . أن تجىء الآن ليصارحنى بأنه يواظب على مراسلة نفسه منذ سنوات . . . فقد تعدى حد الغرابة وتخوم الطرافة ليضرب فى أرض الجنون المطلق» . . .

نظر إليه الثانى يراقبه ويبتسم كلما رسم التفكير خطوطا ملتوية على جبين صاحبه وحول شفتيه . . . واتسعت ابتسامته وهو يسأله :

ـ ماذا يريبك فى الأمر؟ . . ومالك قد اكتأبت واستسلمت لأفكارك السوداء . . .

بنبرة حانقه عصبية جاءة الرد . .

ـ ومـــاذا تكتب لنفــسك . . . آسف . . أعنى لماذا تكتب لنفسك . . . لماذا لا تقول لنفسك ما تريد كتابته . . .

ـ دعنى أشرح لك الأمر . . أنا إن اكتفيت بالحديث إلى نفسى لا أستطيع الفصل بيننا أما على ورق الرسائل فيمكننى أن أفصل . . .

ـ تفصل من عن من؟ . .

ـ اسمعنى . . . أنت حين تحدث نفسك فى المرآة مثلاً . . . ألا توجه كلامك إلى من يظهر فى المرآة؟ وكأنه شخص آخر تحاوره؟

ـ هذا عبث أطفال . . . .

ـ ألا يحدث لك مطلقاً . . .

ـ مرة أو مرتين على الأكثر . . . وكنوع من الدعابه فقط كأن أتخيل صورتى فى المرآة رئيسى فى العمل . . . وأقلده لأضحك . .

ـ إذاً فهو يحدث؟ . . الاختلاف الوحيد عندى . . . أننى أكتب . . . أشعر بنفسى أثنين فيكتب أولهما إلى الآخر . . . ويرد عليه الآخر . . .

هب الأول واقفا وهو يكاد يصرخ . . .

ـ أو ترد على نفسك أيضاً! . .

ـ طبعاً . . كيف تأتينى رسالة ولا أرد عليها؟

ـ أنت تعبث معى . .

ـ أقسم أننى أتكلم جاداً . . .

ـ وما حاجتك إلى هذا اللغو . . .

ـ يخفف همومى كثيرا أن أبوح لنفسى بما لا أستطيع التفكير فيه . .

يجلس الآخر! . . . ساخرًا :

ـ وماذا تنوى أن تبوح به لنفسك اليوم . .

ـ سأعبر لها عن شكى فى صديق العمر . . . الذى يتودد لفتاتى من وراء ظهرى . . .

هب الأول واقفا وقد احتقن وجهه . . ثم امتقع . . . ثم ارتجفت شفتاه ولكنه لم ينبس ببنت شفة :

. . . جرجر ساقيه واختفى . .

رشف الثانى قهوته وهو يهمس لنفسه . . . لاداعى لأن أكتب لنفسى اليوم .

كلمات من دفتر قديم :

«كم نهاراً عشت . . . وكم ليلة أغفيت؟

لم أزد عن نصف ليلة ونصف نهار . .

فالعمر يوم . . . يبدأ بشروق الميلاد . . . وينتهى بغروب الأجل» .

«لو تسين»

نــزوة

حين عاد بالأمس من عمله مكتئباً مقهوراً حكى لزوجته ما حدث . . . ولم تعلق إلا بكلمة :

ـ وماذا بوسعك أن تفعل؟ . .

سقطت الكلمة السؤال فى رأسه كحجر أُلقى فى بركة آسنة . . وظل طوال ليله يعانى من دوامات الصدمة! . . ماذا بوسعك أن تفعل؟ . .

غلبه النوم عند الفجر . . . ورأى أحلاماً كثيرة . . . ومر بكابوس لم ينته إلا عند الشروق . . . وصحا على رنين المنبه وصوت الزوجة يناديه ليحثه على القيام . . . فموعد ذهابه إلى العمل قد حان! . .

نهض والمرارة تفعم حلقه بالعلقم . . . ومزاجه ينحرف مع بندول خفىّ يتأرجح داخله فى إلحاح . . . وكانت دقات قلبه تدوى بطنين فى أذنيه . . .

لم يفه بحرف! . . . ألقى نظرة باردة على زوجته وأولاده . . . يشاركونه الإفطار وهم يضجون بأحاديث تافهة عن الدراسة وحافلة المدرسة التى تتأخر كل يوم . . . ثم انفرط عقدهم حين سمعوا نفير الحافلة يناديهم . . . أو صلتهم الأم ثم عادت تسأله : ما بك . . . تبدو وكأنك لم تنم . . .

رد عليها بإجابة غريبة دهش لها هو نفسه : أنا اليوم سعيد! . .

وفى الطريق . . . كانت أنفاسه تضيق بهجوم موجة حارة فى صيف تبدو بدايته ثقيلة مضجرة . . ثم تذكر أن الصيف مازال بعيداً . . . وأسخطه أن ينتهك الربيع بهذه القسوة ثم شرد مفكراً كانت أول مرة منذ دهر طويل يفكر فيها بالفصول . . . لم يتساءل من قبل عن الربيع ولم يتذكر متعة للخريف وكأن العام انقسم عنده إلى فصلين متناقضين . . صيف حار رطب . . . وشتاء بارد مبلل . . أفاق من شروده حين دخل «المصلحة فقط» ووقع على دفتر الحضور . . . وحين داعبه صاحب الدفتر بأنه قد تسامح معه رغم وصوله متأخراً سبع دقائق . . . توقف أمامه . . . ولحظتها انبثق داخله ضوء أخضر واكتشف فجأة لماذا قال لزوجته أنه سيكون اليوم سعيداً انثنى نحو دفتر الحضور وبسرعة انتزع الصفحة ومزقها ثم ألقاها فى سلة المهملات . . . وواصل طريقه لايلوى على شىء ولايسمع زئير الموظف خلفه متوعداً بإحالته للتحقيق! . . . دخل الحجرة الكبيرة التى يعمل فيها مع مجموعة موظفى «الحسابات» كان «الريّس» مازال غاضباً منذ الأمس وما كاد يراه حتى واصل

هجومه الجارح عليه وزاد هذه المرة قبحاً وسلاطة لسان . . . قال لنفسه : «أنا اليوم سعيد . . . وسأفعل كل مايزيدنى سعادة» تناول سترة «الرئيس» التى خلعها وعلقها على ظهر المقعد . . . وقذفها من النافذة . . . وحين واجهه الرجل ذاهلاً دفعه فى صدره فألقاه على الحائط فشجت رأسه . . . وفى دقائق امتلأ المكان بجمهرة من الموظفين وتحولت صرخاتهم الغاضبة وكلماتهم المنذرة المهددة إلى طنين يصم أذنيه . . . ولكنه تذكر أنه يجب أن يكون سعيداً . . فهدأ وجلس على مكتبه وكتب استقالة وألقاها فى وجه المسئول الكبير . . . ثم خرج . . .

فى الطريق تساءل عن الطريقة التى سيخبر بها زوجته ولكنه لم يهتم . . . سيخبرها غداً أما اليوم فهو رجل سعيد . .

كلمات من دفتر قديم :

صبر القوى شجاعة . . وصبر الضعيف عجز واستكانة والفتى من صبر على إغراء القوة . . . واستقوى على الضعف بفروغ الصبر .

«الكندى»

بُعد!

فى نفس الموعد من كل صباح كان يراها ! . . .

عندما تنتصف الثامنة . . من باب المنزل القديم المواجه له عبر الشارع الضيق . . . تدلف بمعطفها البنى ذو الياقة المرفوعة ونظاراتها الداكنة و«الإيشارب» المعقود حول شعرها . . . وبيدها تلك الحقيبة التى يدل حجمها على أنها حقيبة «عمل» . . . تخطو على الرصيف حتى تصل إلى محطة «الأوتوبيس» فتقف منتظرة . . . بعدها بعشر دقائق تصل العربة . . . فتسرع لتركب . . .

لفت نظره إليها . . . خطوتها السريعة ورأسها المدفوعة دائماً وحركتها شبه الآلية . . . لم يرها مرة تحدث أحداً أو تصحب أحداً . . . ولم يحدث أبداً أن تأخرت فى موعد خروجها الصباحى . . .

أما فى النافذة المقابلة لشرفته فقد كان يراها عند الغروب . . .

وأيضا تفعل نفس الشيء كل يوم تزيح الستار عندما تختفي الشمس خلف البناية العالية ويسقط الظل على الجدار . . . وتلف الستار وتعقد حوله رباطا . . . ثم تحضر المذياع الصغير وتضعه على الحافة العريضة للنافذة ثم تجر كرسياً تجلس عليها ووجهها إلى ناحية الشرق . . . ثم تتناول الخيوط والإبرة وتنهمك فى غزل شيء ما . . . وكانت عتمة الغسق لاتتيح له أن يتعرف على ملامحها . . . ولكنه تخيل - لسبب مالايعرفه - أنها جميلة . . . ملونة العينين . . . وربما أكمل فى مخيلته كل ما عجزت عيناه تبينه فيها . . .

فى الصباح مرة . . . وفى المساء مرة . . .

حاول بأكثر من وسيلة ولأكثر من مرة أن يلفت نظرها إليه . . . ليس أبداً ليغازلها أو ليبدأ قصة حب عبر الشارع . . . ولكن لمجرد أن يرى أكثر . . . ويعرف أكثر . . .

تحولت المتابعة إلى شغف والفضول إلى تعلق! . . وبعد شهرين جلس ليكتب لها رسالة . . . زقزقت آلاف العصافير فى أذنيه وانتشت روحه بعبير الربيع القديم . . . أحس أن كلماته تحمل رائحة الياسمين التى كانت تسكره فى طفولته حين يمر أمام منزل الجيران ذى الحديقة فى حيّة العتيق . . . .

انبعثت فى أعطافه دغدغة الصبا لمشاعر التفتح . . . وجديدة تجرى بالقلم على الورقة المضمخة بالعطر كما جرت قديماً فى رسالته الأولى «لبنت الجيران» وضحك حين تذكر ما حدث حين أقبل والد الفتاة بالرسالة إلى أبيه يشكوه! وكيف كانت الليلة ليلاء ناله فيها من الضرب مابقى حتى الآن فى ذاكرته الحسية . . .

كتب لها بعد كثير من الأشعار التى تعبها ذاكرته . . . . جملة واحدة : انظرى إلى شرفة البيت المقابل . . . ووضع بعدها عشرات من علامات التعجب . . . واستدعى صبى الكواء ودفع إليه بالرسالة ليوصلها . . . وانتظر خلف ضلفة النافذة وقد هاجمته الأعراض القديمة ألم المعدة والإحساس الموجع بالغثيان ومن خلال خصاص الضلفة راقبها وهى فى مجلسها بجوار النافذة . . . ثم رأى لفتتها للداخل التى تشير إلى سماع صوت الجرس . . . ثم نهوضها . . . واختفاؤها . . ثم عودتها بخطواتها البطيئة وقد فردت أمام عينيها أوراق رسالته . . . لم يستطع أن يتبين ملامح وجهها . . ولكنه أخيراً رآها ترفع رأسها . . . وتنظر إلى الشرفة . . . خرج إليها سريعاً . . . وهو ينتظر اللقطة الأخيرة حين يراها تمزق الرسالة . . . ولكنها لم تفعل! . . . ببطء شديد أغلقت النافذة . . . ثم أضاءت نور الحجرة . . .

أحس ساعتها أنها تعيد قراءة الرسالة . . .

خفف قبضته على مسند الكرسى المتحرك ذو العجلات . . . وأداره . . . إلى حيث بدا الهلال فى الأفق الغربى يلمع على استحياء . . .

تنهد وأمال رأسه على كتفه . . . ونام

كلمات من دفتر قديم :

«أكذب الدمع أغزره

وأصدقه أعزه . . .» .

قارئ!

انتهى من قراءة صحف ومجلات اليوم التى اشتراها وهو فى طريقه إلى المقهى . . . ثم نادى الساقى وطلب منه قدح القهوة الثانى . . .

كان ينفذ برنامجه اليومى بنفس الدقة . . . الاستيقاظ من النوم فى السادسة . . . تناول الفطور فى الشرفة مع إطلالة شمس الصباح . . . الخروج إلى طريق الكورنيش فى جولة البحر . . . . التى تنتهى عند بائع الصحف والعبور إلى مقهاه الأثير . . .

عند وصوله يطلب قدح القهوة الأول . . . ثم يبدأ فى قراءة كل جرائد ومجلات اليوم . . . يستغرقه هذا طوال ساعتين . . . بعدها يطلب القدح الثانى . . . يرشف محتواه فى بطء وهو يفكر فى كل ما قرأه . . . يقسم الموضوعات ويبوبها فى ذهنه . . . أخبار السياسة . . . ثم مقالات الرأى . . . فأخبار الحوادث . . . . ويخرج

من جيبه دفتراً صغيراً يسجل به ملاحظاته . . . وهى ملاحظات دقيقة . . . ذكية تنفذ إلى جوهر الأشياء بسرعة وعمق . . . كما يردد لنفسه دائماً . . . .

فى أقصى أركان المقهى يجلس أصدقاؤه حول رقعة الشطرنج . . . هم لايزعجونه إذ تعودوا أنه لايشاركهم فترة الصباح والظهيرة . . . هو ينضم لهم فقط حين يعود مساء بعد نوم القيلولة . . . أما الآن فهو يراقبهم عن كثب دون اهتمام . . . لأنه كما يرون غارق فى تأملاته . . .

واجترار دروس ما قرأ . . . وهى دروس يلخصها لهم فى جلسة المساء بعد انتهاء مباراة الشطرنج . . . . ويؤكد لهم أن تلك الدروس لاتنضج فى ذهنه! إلا بعد نوم القيلولة . . . إذ يترك انطباعات ما قرأه لتتفاعل أثناء النوم مع مختزنات عقله الباطن وذكريات القراءات السابقة التى انزوت فى مخبأ النسيان . . . لتنضج بعدها وتواتيه كالإلهام . . .

. . . أزعجه هذا الصباح وافد لم يعتد رؤيته فى المقهى . . . فكل روادها ثابتون كصور تذكارية معلقة على الجدران . . . أما هذا الوافد فشىء آخر . . .

وأكثر ما يزعجه أن يحملق فيه الغريب بهذا الشكل الوقح وقد رقدت على ملامحه ابتسامة مقيتة لزجة . . .

حاول أن يتذكر بسرعة ـ ربما التقى به فى زمن سابق! ولكنه لم يعثر فى حنايا تاريخه ما يطابق الصورة . . . ضايقه للغاية أن

يقتحم هذا الغريب دائرة تفكيره . . . فاعتدل مغيراً اتجاه جلسته ليعطه ظهره . . . ومع ذلك . . . فقد كان يحس بالعينين والابتسامة اللزجة يبعثان تياراً لاهبا يقلقه . . . التفت ليختلس نظرة استطلاع فوجده واقفاً بجواره . . . يهمس فى لهجة رقيقة تقطر عذوبه : هل تتكرم بإقراضى هذه الجرائد لأتصفحها سريعا؟ . .

. . . حتى الآن وبعد مرور شهور على هذه الحادثة لايدرى كيف أعطاه جرائده ومجلاته . . . ومازال يسخط على نفسه وقد لازم منزله ولم يعد يخرج وفقد إلى الأبد متعة برنامجه اليومى . . . .

منذ استقر ذاك الوافد اللعين فى المقهى واستولى على ألباب الرجال يجمعهم حوله كل مساء وبعد مباريات الشطرنج يلخص لهم قراءاته اليومية ويدلي بدروس عن مغزى ما قرأ . . . وبقى هو القارئ الأصيل وحيداً بين جدران أربعة وزوجة لاتقرأ وأولاد يصخبون ولا يسمعون .

كلمات من دفتر قديم :

الحقيقة كحد الموسى . . .

إذا اختبرته لابد أن تدمى أصابعك

برناردشو

انكسار . .

سقط شعاع الشمس على الإناء الزجاجى فانكسر إلى حزمة ضاعت فى الوهج . .

وارتطمت الموجة بشعاب الصخر فخارت قواها وتفرقت واندثرت . .

. . . كل متحرك يصدم بثابت لابد أن يتغير أو يتبدد . . .

كتب السطور والنشوة تتملكه . . وقد استقر فى ذهنه أنه اكتشف قانونا طبيعيا جديداً . . . ثم نام . . .

فى الصباح كان لابد له من الإعلان عن نظريته الجديدة . .

لابد أن يرى انتصاره وهو ينعكس بريقاً فى عيون أولاده . . وسينظر بركن عينه إلى زوجته التى ستفاجأ وتصطدم حين تراه لأول مرة أقوى منها . .

كانت دائما هى الأقوى . . .

وكانت دائما منتصرة . .

ولطالما فرضت رأيها فى كل الظروف!

فى تربية الأولاد كانت لاتعنى حتى بتفسير أوامرها . . كانت تحكم بالإشارة والنظرة . .

وفى اقتصاديات المنزل . . ماكان دوره يتعدى تسليم راتبه فى بداية كل شهر ووضعه بين يديها . . وانتظار أن تعطيه هى نفقات جيبه . . .

وقد قررت هى مثلاً أن يقلع عن التدخين . . لم تنذره . . ولم تعطه مهلة ليفكر . . . ولم تحاول أن تتدرج معه بحيث يقلل كمية مايدخنه شيئا فشيئا . . حتى يصل أخيرا إلى مرحلة الإقلاع . .

اكتفت وبطريقة آمرة حاسمة حين سلمها راتب ذاك الشهر . . بأن أعطته نفقات جيبه مخفضة إلى الربع ـ وحين استفسر أعلنته بأنها قد حذفت من الحساب تكاليف التدخين . . . وأصبح من الحتم أن ينسى إدمانه السخيف!

حاول مرارا أن يقاوم تسلطها ولكنه ارتطم بإرادة حديدية أفشلت كل محاولاته حتى آمن أخيراً بما قاله أصدقاؤه : . . . استسلم ولا تحاول . . فلن تستطيع إخضاع شخصيتها الطاغية إلا إذا تفوقت عليها بأى صورة وفى أى مجال . . .

. . . وكان أن بدأ يفكر . . .

وأغرق نفسه فى مجموعة الكتب القديمة التى ورثها عن أبيه . .

وقد تركته يفعل لأنها لم تر ضرراً فى أن يسهر الليالى بين أوراقه القديمة الذابلة . . بل ربما أتاح لها هذا أن تنفرد بالساحة تماما وتنفيه خارج دائرة القرار .

أما هذا الصباح . . فقد فاجأهم جميعا . . .

حول مائدة الإفطار . . . لم ينتظر كعادته أن تضع له الطعام فى طبقه أو تصب له شاى الصباح . . . بادر بثقة فاختار لنفسه ما يأكل ثم أفرغ فنجانا من الشاى فى جوفه دون أن يعبأ بتحذيرها له عن وجوب إضافة اللبن . . بل لعله لم ينظر إليها . .

وجه حديثه لأولاده فقط..

راح يحدثهم عن نظريته الجديدة فى الميكانيكا عن ارتطام المتحرك بالثابت . .

وقد عرفت أخيراً أن أمكم المتحركة وأنا الثابت . . وأنها لابد وأن ترتطم بى يوماً . . وأنا على استعداد . . وأنتظر هذا اليوم . . . لأريكم كيف أغيرها . . أو أبددها . .

. . . ووسط نظرات الأبناء الذاهلة . . تناول هو قدحه ليرتشف منه آخر قطرات الشاى . .

. . . بينما سقط القدح من يد الزوجة . . وهى تنظر له ـ ربما لأول مرة – فى رهبة .

كلمات من دفتر قديم :

ومن تفكر فى الدنيا ومهجته

أقامه الفكر بين العجز والتعب

«أبوالطيب المتنبى»

اتجـــاه!

لم يصدق عينه حين رآها تسرع الخطوة نحوه ..

وكذب أذنيه حين سمعها تهتف باسمه . . .

ـ أنا ؟ . . .

ـ ومن غيرك؟

ـ ولكنى لم أرك إلا منذ ساعة . . . وحتى لم نتبادل التعارف . . .

ـ مثلك لايحتاج لمن يعرف به . . .

ـ أحسب ياسيدتى أننى لا أعد من النجوم الذين ينبهر بهم الناس . .

ـ لا شأن لى بالناس . . يكفى أننى أعرفك . . .

ـ ما تقولينه يسعدنى ويرضى غرورى . . .

ـ إذاً فإلى أين تتجـ

ـ تعودت فى مثل هذا الوقت أن أشرب الشاى فى مقهى صغير يطل على النهر . . .

ـ أيزعجك أن أصحبك؟ . .

ـ على الإطلاق . . .

سارا جنبا إلى جنب . . . تتحدث هى بحماس وتدفق . . وينصت هو إلى جرس صوتها وإيقاع كلماتها . . كمن يستمع إلى موسيقى ساحرة تعزفها أوركسترا مكونة من خير عازفى العالم . . .

أبداً لم يقل له أحد مثل هذا الكلام . .

بالطبع كان هناك الكثيرون ممن أعجبوا به يقولون له الكثير . . .

ولكن أبداً ليس بهذا الحماس . . وهذا التدفق الصادق الذى استطاع أن يتراقص بقلبه . . .

وحول فنجانى شاى . . جلسا . . هو يحدق فى النهر كأنه لايجرؤ على النظر فى عينيها . . وهى مازالت تحدثه عن مؤلفاته وعن أسرار الإعجاز فيها . . .

أدهشه إلمامها الدقيق بكل مايكتب . . حتى لتستنبط من مؤلفاته معانى وأفكار لم يقصدها على الإطلاق . .

وتشجع فذكر لها هذا . . ولكنها مضت تشرح له أنه على مستوى الوعى يحس بأنه لم يقصد تلك المعانى والأفكار . . . أما على مستوى اللاوعى فهى بعض من مخزون أحلامه وإحباطاته . .

... رباه ! .. كيف يتسنى لأنثى أن تجمع بين جمال الجسم وجمال العقل بكل هذه الدقة وكل هذا الاكتمال؟

دار السؤال بذهنه وهو يدقق النظر فيها ...

واتته الشجاعة أخيراً لينظر فى عينيها ...

وصعقته تلك النظرة .. فى عينيها ... رأى ابتسامة ساخرة تبرق فى عينيها ومن خلف رأسها كانوا هناك ...

بعض من تلاميذه الذين يعكرون عليه صفو كل محاضرة ..

يضجون بالضحك ...

.. ووقف فجأة ليجد حقيبتها مفتوحة .. ويطل المسجل منها ...

وتذكر فجأة أن كل ماقالته كان منقولاً بالنص من مقال نشر عنه فى الصيف الماضى ..

.. كان يذكر العنوان «الأستاذ الفيلسوف .. يتمرد على الفلسفة» ..

أحس بخجل مرير .. ولم يعرف ماذا يفعل ..

بينما هبت هى واقفة وأغلقت حقيبتها وهرعت تكاد تجرى لتختفى ..

ظل مكانه وهو يهذى .. استيقظ ..

كان يوقن أنه مستغرق فى نومه .. وسيصحو عما قريب .

أقواس

من خلف النافذة بدون لعينيه ...

مجموعة من الأقواس البيضاء تخفق وتتقاطع وتتفرق ثم تتجمع .. ثم تتطابق لتشكل قوساً واحداً مضبب المعالم ...

كان يراهن صباح يوم العطلة من كل أسبوع ... فى الحديقة المجاورة لمنزله ...

فتيات صغيرات .. طفلات فى عمر الشروق .. يمارسن رياضة الوثب بالحبل ..

اثنتان تمسكان بطرفي حبل طويل ... يدرنه فى حركة رتيبة متوسطة السرعة حول أخريات يقفزن فوقه وهن يتفادين الاشتباك به .. يظهر القوس منفرجاً ويختفى الحبل ..

ثم تنفرد كل منهن بحبل قصير تدير طرفيه لنفسها وتقفز ... تتعد الأقواس الضيقة فى اتفاق وانسجام .. يسمح للحركة خفيفا منغما يواقع دقات الكعوب الصغيرة على الأرض ...

واحدة منهن . . تتقدم الصف كالباليرينا الأساسية . . يفسحن لها الطريق . . يتحول أقواسهن إلى حبال متثائبة . . وتبدأ هى . .

فى نشوة تتبدى فى حبيبات عرق لامعة ترصع الجبين . . . وحمرة تتورد فى الخدين . . وأنفاس تتلاحق محركة طاقتى الأنف . . ثم تتسارع الحركة . . وتدور كالفراشة ثم يتقاطع ذراعاها وتعكس اتجاه الحبل . . يغمض عينيه فيراها . . كراقصة فى إحدى لوحات «ديجا» . . .

يفتح عينيه يراها وقدماها لاتلمسان الأرض . . . والحبل يختفى فى رفات هواء يصفر حولها . . تتلاشى فى اندماج صوفى مع الحركة . . . ولا يظهر منها غير قوس مضىء . .

يغمض عينيه مرة أخرى ويحس بالنشوة . . .

تنداح ذكريات بعيدة ليختلط بوقائع حاضر حزين . . يفيق على صوت ينادى . . .

يريد أن يفتح عينيه . . تتقاطع أقواس ملونة خلف جفنيه . . يلح النداء . . تنشطر الأقواس وتتحول إلى مخيمات تنفجر فى السديم . .

يتحول النداء إلى صراخ . . يفلح أخيرا فى الاستيقاظ من حلم الثوانى . .

تختفى الحديقة . . وتتلاشى رقصات الحبل . .

يمضى إلى حيث أتت الصرخات . . .

احتوت الأم طفلها وانحنت عليه كالقوس . .

ـ الماء على النار . . ناولنى لأرضع الولد!

. . فى خطوات آلية ذهب ثم عاد . .

ـ أضف اللبن إلى الماء المغلى وضعه فى زجاجة الرضاع . .

. . ارتسم قوس صغير فى شفتى الرضيع . . . ولقم ثدى الزجاجة . . .

ومن عينيه المطبقتين انزلفت دمعتان . . .

انحنى عليه فى قوس أبوى . . . ولثم جبينه . . وهى يناجيه فى أعماقه . . .

«ستكبر قليلا . . وأعطيك حبلاً لترقص عليه فى الحديقة .

كلمات من دفتر قديم :

فياليت أن الدهر يدنى أحبتى إلى كما يدنى إلىّ مصائبى .

«عنترة العبسى»

اختنـــاق

أحس بها لأول مرة فى الصباح . . . حين استيقظ من نومه وفتح النافذة وأزاح الستار . . .

كان صباحا متوهجاً من صباحات أيلول . . . الشمس تنسكب على حافة الأشياء جميعاً . . . أوراق الشجر . . نتوءات الصخور . . . وأطراف الأنامل . . . وزبد الأمواج المتدافعة على صدر البحر عند حضن الأفق . . وكانت النسمة الدافئة تعبق بعبير زهور صيفية تبدو كما لو كانت قد تشبعت بكل مامرت به من روائح الزهر وبخار الماء ولهاث الناس . . . فتندت على طرفى الأنف ساخنة ثرية . .

ساعتها أحس بها فى أصابع قدميه . . وخزات خفيفة تثير الضيق أكثر من أن تسبب ألماً . .

. . . ولكن . . تسرب الضيق . . وبقى فلم يغادر . . .

تشاغل عنه بحمام الصباح . .

كان الرزاز يندفع بقوة من الثقوب الدقيقة ليتحول إلى خيوط متصلة تنهمر على كل المسام فتتفتح وتصنع ذلك الانتعاش . . . يخفق فى الحنايا البعيدة مثيراً رغبة عارمة فى ارتشاف كل رحيق متاح . . ومع الرشفة الأولى فى الركن تحت الخميلة . . . عاودته مرة أخرى : كان الوخزات هذه المرة فى ساقيه . . عللها بآثار تبخر المياه المتخلفة عن الحمام فوق جلده . . ولكنها ضايقته بشكل أفقده لذة فنجان القهوة الصباحى . . فهجر جلسته وقرر أن يسير . .

بطول الشاطئ كانت أسراب الخريف المقترب تمرح بين الناس والطير والأشجار . . والخطوات تتسارع وفقا لإيقاعات حياة تغير نبضها فهناك فى الصدر دقات متمردة تشى بالشجن الوافد مع الرياح . . .

فى الأفق تتجمع سحابات خفيفة داكنة اللون . . . لاتلبث أن تكسر وهج النهار للحظات . . يصطبغ كل شىء برمادية مؤقتة لدقائق بعدها تتقشع الظلال لتسيطر الشمس مرة أخرى تخيلها ساعة وهو يسير على الرمال ويتلقى لثمات الموجات المتهالكة عند قدميه . . رمزًا لصراعات العبث المحتوم . . وراح يفكر جدياً فى أنها لعبة الأزل . . حركة كون يتجمع ثم يتبدد وفى قلب اللعبة تنتهى حياة وتبدأ حياة . .

فى نهاية الطريق المؤدى للجسر كان موعد المرة الثالثة . .

هاجمته هذه المرة فى صدره وذراعيه . . وكانت أشد إثارة للضيق والألم . . .

توقف مستنداً إلى سور الجسر . . لايصدق . . .

كانت الشمس الغاربة جاثمة بأكملها عند نهاية الجسر يكاد لون ذراعيه أن يمسكها . .

. . الشمس ليست كبيرة . . ليست أضخم النجوم . . ولا هى سيدة الأجرام السماوية . . إنها فى متناول اليد مثل برتقالة . . وضوؤها لايعمى الأبصار . . . إنه فقط يتسلل فى نعومة ليحتويك . . . مد ذراعيك ودعه يحتضنك .

ترك نفسه للضوء الزاحف . . يدور حوله حتى يصل إلى عنقه . . . وأدرك للمرة الأولى والأخيرة أنه الاختناق . . .

المدهش أنه لم يتألم . . كان فقط لايتنفس . . ولا يريد .

رقة !

«لم تكن ملاكا . .

لم تكن ذلك المخلوق النورانى المجنح الذى يطفو على سطح الأشياء . . ويخطر مع رفيف نسمة الأصيل . .

لا . . ولم تكن رأسها محاطة بهالة من نوع ما . . . .

كانت فقط تبتسم . .

لايذكر أحد منا أنه رآها غاضبة أو عابسة أو مكفهرة . . . بل يرها أحدٌ ساهمة أو حزينة . . . حتى لحظات شرودها كانت تشع بشىء من الابتسام الهادئ الذى يوحى بمخزون دافئ من عواطف الحنان والعطاء . . .

لايمكن أن تحكى عنها فتقول . . حين ابتسمت؟ . . فليس لابتسامتها حين لأنها موجودة أبداً والصحيح أن تؤرخ لحظات السرور فى يومك بلحظة التفاؤل بها . . . » .

. . . صمت الشيخ . . وطال صمته . . . حتى ظننا أنه نام

كعادته . . . حين يبتر استرساله فى الحكى ويطرق برأسه على صدره وفوراً نسمع غطيطه الرتيب . .

واليوم لم يكن هناك غطيط . . وكانت عيناه شاردتان خلف صورة مبهمة تجرى فى الأفق مع سحابات الغروب المفرجة باحمرار الشمس المنزلقة . .

إذاً «فلم يكن نائماً . . فقط هو يحاول التقاط خيط» ما . .

. . . اختفت الشمس وسادت عتمة الغسق . . وخرج صوته خفيضا متهدجًا :

أما وقد غربت الشمس فأنا أتذكرها الآن جيدا . . حين تهرب بعينيها من وهج الظهيرة . . مظللة جبينها بكفيها . . وهى تضحك لى من تحتها وتهتف . .

ـ أتحبنى حقيقة؟

أقسمت لها أننى أحبها . . .

ـ ولكنك تعلم أنى لا أحبك . .

كم بكيت يومها كالأطفال . . وكم ثرت كالحمقى . . وكم أنفجر غضبى كالبركان . .

أتعرفون ماذا فعلت؟

. . . ألقى بالسؤال ثم صمت . . وانتظرنا . .

ولكنه كان قد أغفى هذه المرة . . .

انتظمت أنفاسه . . وصدر غطيطه . . رقيقا كهرهرة قط . .

. . . وأدركنا أن غفوته سوف تطول واقترح أخى الأكبر أن ننسحب بهدوء ونتركه لنومه وحين يصحو فسيبحث عنا . .

وبدأنا نتسلل حين أوقفنا صوته : أتعرفون ماذا فعلت؟

ـ رنت إلىّ باسمة وقالت : لا بأس . . لاتحزن . . سأتزوجك . . .

ولكنك لاتحبيننى . . قلت أنا . .

قالت هى : سأعود نفسى . . وسأحبك . .

أحسست بالمهانة والفرح معاً . . أتعرفون ماذا قلت لها . .

ـ ماذا ؟

نطقناها جميعاً بصوت واحد . . ولكنه لم يجب . .

راح فى سباته مرة أخرى . . .

. . . هذه المرة . . قررنا ألا نبرح حتى يستيقظ وينهى حكايته . . .

. . وقررنا أن نتسلى طوال نومه . . بتخمين شخصية المرأة التى يتحدث عنها . . ونطابقها على كل من يعرفنه . . من نساء الأسرة . . .

. . . ومضى على السؤال الآن سنوات كثيرة . . ولم نعرف من هى تلك الرقيقة كالملائكة . . . ولم نعرف ماذا قال لها . . لأنه لم يصح من غفوته مرة أخرى .

كلمات من دفتر قديم :

كلما اتسعت الخطوة . . . هان الطريق

وكلما علت الهامة . . . حدّ النظر . .

الحـــب!

عاد إلى المنزل كعادته مساء كل يوم ... منقبضاً ضيق الصدر ... يفكر فى الحوار اليومى الذى يتحول بعد لحظة إلى جدال فشجار فمعركة تلقى بهما فى النهاية داخل هوة نوم ثقيل بارد يرزح تحت ساعات من الأعلام الرديئة الممرضة ..!

بدءا هذه الرحلة التعسة قبل مضى عام على زواج سبقته قصة أسطورية كانت مضرب الأمثال بين الأصدقاء والأهل ...

والآن تنسج الكراهية المتبادلة بينهما خيوطها كل يوم ... حتى أقامت مايشبه الجدار المتحرك .. الذى يتبعهما كلما اقتربا بكلمة أو التقيا فى لحظة تفلت من محاولات التحاشى والابتعاد ...

ولاشك أنه حاول .. كما حاولت هى ... ولكن ارتطمت كل المحاولات بالحائط الرهيب وتطايرت شظاياها لتصيب قلبيهما بجراح جديدة .. حتى كفا عن أى محاولة ..

ولاشك أيضا أن فكرة الانفصال قد راودته كثيرا .. ولكن شيئا

من الجبن والاعتياد كانا يبعدانها كل مرة .. وكثيرا ماردد لنفسه .. لقد تجرعت السم حتى الثمالة حتى أدمنته فعش حياتك كما هى واستسلم» ....

حتى كانت الليلة ... وما كاد يدلف داخل مسكنه ويلقاها حتى عقدت الدهشة لسانه .. وربما خيل إليه للحظة أنها لم تكن هى ..

... هناك على وجهها ابتسامة عريضة .. وبريق يتألق فى عينيها ... ومسٌ من حيوية يتفجر فى كيانها فيحركها بنشاط يتوفز .. ويجعلها لا تخطو .. بل تتقافز كعصفور يحطه على أرض ربيعية مزهرة ...

وقبل أن ينبس بحرف بادرته بتحية المساء ومدت يديها لتخلع عنه سترته ولحظتها تنسم من أردانها عطراً باريسيا طالما أسكره فى الزمن الخالى ..

وبرفق تجذبه من ذراعه إلى مائدة عامرة ... وكان لابد أن يبدأ الحوار ...

ـ عصرت ذاكرتى وتأكدت أن اليوم لايوافق أى مناسبة خاصة ... فلا هو يوم ميلادك ولا يوم ميلادى .. ولا ذكرى زواجنا ...

ـ يستطيع الإنسان أن يجعل لأى يوم ذكرى يحتفل بها ...

ـ وماهى الذكرى التى تحتفلين بها الليلة؟

ـ ذكرى يوم حلمت به ولم يأت!

ـ أى يوم تقصدين؟

ـ قلت لك لم يحدث! . .

ـ فكيف تذكرته؟

ـ أنا أذكره دائماً لأنى أحلم به . . .

ـ كلامك لايقنع . . ولابد أن أعرف السبب!

ـ السبب فى أى شىء . .

ـ فى تلك الحالة الغريبة التى تبدين عليها . . . التألق والفرح والتماع العينين والشعر المصفف . . . والحيوية التى ترتجف بجسدك كله . .

ـ وماذا تكره فى هذا كله؟

ـ غرابته وعدم اعتيادى له . . .

ـ لعلى أريد إصلاح مابيننا . .

ـ بلا سبب؟ يبدو الأمر مريبا

ـ فماذا يكون السبب فى رأيك؟

ـ هذا ما أريد أن أعرفه . . ولابد أن أعرفه . . هيا . . اعترفى . .

وكالعادة تحول الحوار . . إلى جدل فشجار فمعركة ألقت بكليهما فى هوة اليأس .

كلمات من دفتر قديم . . .

البعض من كل شىء . . اليوم

أفضل من اكتمال شىء واحد . . غدا

بلاضفاف

خرجنا فى ذاك الوقت الحائر بين الليل والنهار . . .

السماء خالية من حمرة الشفق . . والكون لم يتلفع بعتمة مساء قريب . . والشمس ليست هناك . . ولا انعكاسات ذهبية أو فضية على وجه البحر . . . فالزرقة قاتمة . . وتجاعيد الماء لاتحمل زبداً . .

ولا أمواج هناك . .

وعلى الدرب المحفوف بالأشجار ودوالى الكرم وأحواض الورود . . لا تطن فراشات . . ولا أسراب نحل . . . والمساحات السماوية لا يعكرها حفيف جناح . . فلا طيور هناك . . .

والقينا الرحال هناك . . . فى مكان لم نعرفه قبلا ولم يرشدنا إليه أحد . .

مكان لامعالم تحدده . .

ربما كان ربوة صخرية . . وربما كان حافة لجرف يطل على البحر . .

وقد يكون مجرد أرض تائهة بين الغابة والصحراء وشاطئ البحر . . .

الرمال لاتحمل آثاراً للأقدام . . .

والبحر لم يلق هنا أصدافاً . . .

ولا توجد نبتة خضراء . . . ولا حتى أجمة صبّار . .

حتى الرمال ليست رمالاً . . هى أقرب للتراب . . .

ـ لماذا هنا؟ . . .

ـ لا أعرف . . قادتنا أقدامنا إلى مجرد مكان . . .

ـ أحس فيه بالوحشة . . .

ـ وأنا أحس فيه بجمال من نوع خاص . . .

ـ أين الجمال الذى تتحدث عنه؟

ـ ربما كان الصمت؟ . .

ـ الصمت يبعث على الوحشة . .

ـ لعله الإحساس بعذرية المكان . . فلاشك أننا أول من وطأه . . .

ـ وما الذى يمتع فى مكان لم تطأه قدم بشر؟

ـ إحساسنا بأنه ملكنا . . نحن فقط . . .

ـ أخشى أن نحاول الخروج منه فنضل الطريق . . .

ـ ولم لا نعود من حيث أتينا . .

ـ إنه مكان لا يؤدى إلى طريق . . .

ـ ولكننا وصلنا إليه . . .

ـ أخشى أن تكون مجرد صدفة عمياء . .

ـ سأعرف الطريق إذا نظرت إلى الشمس . .

ـ وأين هى الشمس . . .

نظرت إلى السماء وتذكرت أنه يوم بلا شمس . . . وأحسست بخطورة المأزق . . ثم صمت متهللا . . .

ـ آثار أقدامنا ستهدينا . . فهيا بنا . .

أفسد الخوف متعة الاكتشاف . . .

ولكننا تبعنا آثارنا . . حتى أطبق الليل فجأة . . .

ولا قمر هناك . . .

ونسينا لم جئنا . . . وماذا كنا نريد أن نقول . . . فقد ضللنا الطريق . . وتشاجرنا . . ولكننا لم نفترق . . . وظللنا نسير معاً . .

كلمات من دفتر قديم :

وذو الشوق القديم وإن تعزّى

مشوق حين يلقى العاشقينا

« عمر بن أبى ربيعة »

خوف!

صعد إلى مركبة قطار الأنفاق لاهثاً بعد أن جرى كل تلك المسافة ليلحق به . . .

كانت آخر رحلات ذلك اليوم وكان الليل يوغل فى انتصافه . . . والمركبة شبه خالية . . . أربعة ركاب متناثرين فى مقاعد متباعدة . .

جلس وهو يجفف عرقه . . . درجة الرطوبة عالية تخنق الأنفاس . . وإحساسه بالنفق يثير أعصابه . . كان يعانى زمنا من «فوبيا» الأماكن المغلقة ـ فراح يحرك الصحيفة المطوية فى يده بقوة لتدفع إلى وجهه أى حركة متاحة للنسمات الراكدة . . ضعفت الإضاءة فجأة وخفقت مصابيح القطار ثم استردت قوتها فراح يفكر فى ذعر عابر باحتمال انقطاع الكهرباء ثم أخذ يطمئن نفسه بتذكر ماقالته الصحف عن الاستعدادات الكاملة لمواجهة الطوارئ .

تذكر أيضا ماحدث منذ أعوام قليلة حين تعطلت مولدات الكهرباء بالمستشفى أثناء مولد طفله!! ابتسم لنفسه وهو يستحضر

ملامح طفله الضاحكة وتلك الحركة العابثة التى يمد فيها كفه الصغير ليجذب شعره . . . استردته من ذكرياته حركة عبور بين المركبتين . . . إذ دخل ذلك الشخص الضخم ذو الملامح الغليظة العابسة وراح يخطو فى الممر ببطء وهو يتلفت متفحصا وجوه الركاب القلائل ليتوقف أخيراً عنده . . .

كان يرتدى ملابس غريبة . . . معطف شتوى ثقيل على حلة كاملة ويلف حول عنقه ملفحة من الصوف وعلى رأسه طاقية من الفرو الرخيص تشبه «القلبق» الروسى !

(لماذا لايجلس هذا الرجل؟) . .

رددها بداخله حين رأى «الشخص» يقف فى الممر مستندا بيده إلى ظهر المقعد كما لو كان يقف مضطرا لعدم وجود أماكن . . وكانت عيناه تطلان من أعلا مثبتتين فى وجهه هو بالذات . . وتلك التقطيبة الغاضبة تبدو كما لو كانت موجهة إليه . .

تململ فى جلسته وأحس بالتوتر . . اختلس إليه نظرة . . . فارتطمت بالوجه الصخرى العابس وارتدت إلى رأسه كموجة هادرة توشك أن تبتلعه . .

ماذا يريد؟ تردد السؤال فى داخله كإيقاعات طبول فى غابة أفريقية تمور بالوحوش والاحتمالات الخطرة . . .

وعاد العرق ينزف من مسامه فى غزارة . . . وكان لابد أن يتصرف فهو لايستطيع أن يتحمل هذا الضغط إلى مالا نهاية . . فاستجمع كل شجاعة فى طاقته . . ورفع رأسه . . وقال وهو يشير بيده إلى المقعد الخالى أمامه :

- تفضل! . .

لم يجب الرجل ولم يبد عليه أنه سمع شيئا على الإطلاق . . . فقط أحس صاحبنا بأن قبضته تزداد ضغطاً على ظهر المقعد . . ونظرة النارية تنفذ أكثر مخترقة جبهته التى التهبت وسرى التهابها إلى جسده كله فانتفض كمن أصابته قشعريرة الحمى . . .

لا مفر . . . هناك أمر رهيب يضمره هذا الشخص ويتهيأ لفعله . . فهو يقترب منه أكثر . . حتى أن معطفه يلامس وجهه الآن . . .

أصابه دوار الفوبيا القديمة . . . وانحشرت صرخة الاستغاثة فى حلقه . . . بينما تحولت الحمى إلى جليد يثقل قدميه . .

هب واقفا . . . وأراد أن يجرى . . . اصطدم بالقامة الفارعة . . فانهد جالساً من جديد . . وأحس بالمقعد يغوص به مخترقاً أرضية العربة . . . وصرير العجلات الفولاذية يصم أذنيه . . ساعتها فقط أدرك أنه قد سقط ضحية لكابوس ما . . فابتسم رغم أنه لم يستيقظ بعد .

كلمات من دفتر قديم :

فيارسولى تضرع فى السؤال له   عساك تعطفه نحوى وتثنيه

إذا سألت فسل من فيه مكرمة   لاتطلب الماء إلا من مجاريه

د/البهاء زهيره

لامفر!

كان القطار السريع يمرق كالسهم فوق القضبان المتجهة شمالاً! . . وبداخل العربة يشيع دفء التكييف مع دفء الأنفاس ويسود صمت لايحدثه إلا صوت الأزيز المنبعث من محرك القطار . . وتلك الطرقات ذات الإيقاع الموسيقى والناتجة عن احتكاك العجلات بالقضبان! . .

خارج القطار . . كان الجو يبدو من خلال النافذة الزجاجية داكنا والشمس مختنقة وسط ركام من السحب الشاتية القائمة . . .

نهض وخلع عنه المعطف الثقيل وعلقه على مشجب النافذة . . . ولحظتها رآها . . تعبر الباب الفاصل بين العربتين . . غادة ذات جمال مبهر . . ذلك النوع من الجمال الذى يفرض سيطرته منذ اللحظة الأولى ولا يختلف فيه اثنان!

دارت حولها العيون والتوت خلف خطواتها الأعناق . . . وظل هو واقفا حتى اقتربت من مقعده توقفت . . . تراجع رقم التذكرة مع الأرقام المدونة على الشريحة المعدنية المثبتة بجوار النافذة وحين

تأكدت . . ألقت بنفسها فى المقعد المجاور وهى تزفر فى ارتياح من بحث طويلاً ثم وجد ضالته . . . حينئذ تخلص من جموده وجلس مكانه فى بطء وهو يشعر ببهجة داخلية غير مبررة . . وفى ركن بعيد داخل الأعماق أمنية خافتة بشىء ما لا مفر من حدوثه . .

فى نظرة متأنية فاحصة لاحظ أنها ليست كما تبدو لأول وهلة . . فهى غير أنيقة . . بل تبدو وكأنها لاتجيد ولاتعنى باختيار ملابسها رغم ارتفاع سعر ماترتديه . . هناك لمسة من إهمال تبدو حتى فى تصفيف شعرها الذى تنهدل خصلاته الشقراء على جبينها فى فوضى . . ومع ذلك فهى فوضى تكمل الجمال بشكل محير . .

اكتشف أنه يحدق فيها . . وربما اكتشفت هى الأخرى ولكنها لم تلق بالاً . . ولم تعره أى التفات . . سوت معطفها الخفيف ذا الطراز الفرنسى وبحركة رشيقة أخرى رفعت خصلة الشعر المتمردة من جبينها وعلى الفور أخرجت صحيفة مطوية من حقيبة اليد الكبيرة . . ثم أخرجت قلما وانهمكت فى حل مسابقة للكلمات المتقاطعة . .

من فوق كتفها وبنظرات مختلسة . . راح يتابع محاولاتها . . أسكرته للحظة رائحة العطر الجميلة حتى أفاق فوجدها تقف حائرة أمام إحدى كلمات اللغز . . بحث بعينيه فى سرعة فى قائمة المفاتيح حتى عثر بالكلمة . . وانفجر صدره بفرحة غامرة . . حين اكتشف الكلمة اللغز . . وانداح الانفجار على لسانه :

ـ الشاليمار . . .

التفت له بدهشة ولكن بلا أى استنكار أو حدة . .

ـ عفواً . .

ـ الكلمة التى توقفت عندها . . حدائق بالباكستان . . .

ـ اسمها الشاليمار؟ . .

ـ نعم . . . هى . . .

راجعت الصحيفة . . . وحين اكتشفت صحة الحل . . ظللت وجهها سحابة وانعقد مابين حاجبيها . . ثم طوت الصحيفة مرة أخرى دون أن تكمل الحل . . . ثم قدمتها له مع القلم . .

ـ تفضل . . أكمل الحل . .

ودون أن تنتظر جوابه . . نهضت وغابت فى ممر العربة . .

بعد دقائق . . فوجئ برجل . . يجلس بجواره . . وبادره . .

ـ صاحبة المقعد رجتنى أن أتبادل معها مقعدى . . .

نظر الى الصحيفة . . . ثم إلى القلم . . تركهما فى جعبة المقعد المقابل . . ثم أراح رأسه إلى النافذة وأغمض عينيه . . وفى رأسه تتضخم أصداء الكلمة . . لا مفر . . تتردد . . وتتردد . . حتى نام .

كلمات دفتر قديم !

برغم جميع ادعاءاتنا . . بأنى لن
وأنك لن . . فإنى أشك بإمكاننا

«نزار قبانى»

طيف!

قبل انتصاف الليلة بقليل طرق الباب ..

نظر إلى ساعة يده ثم إلى الباب وهو يرهف السمع .. وحين مرت الثوانى الأولى دون أن تتكرر الطرقات أدرك أنه توهم ماسمع ... وعاد إلى التليفزيون يتابع البرنامج .. كانت هناك فقرة ضاحكة انتزعت منه ابتسامة ... وقبل أن تتحول إلى ضحكة سمع الطرق مرة أخرى ..

.. فى هذه المرة لايمكن أن يكون الصوت وهماً .. تحرك ناهضا وهو يحس بالدهشة : الباب له جرس كهربائى ... فما الذى دفع الطارق إلى استخدام المقبض النحاسى؟ .. غمغم لنفسه : ربما تعطل الجرس ..

فتح الباب ووجده أمامه ...

رجل نحيل .. هضيم الوجه .. دب الشيب فى الشعرات القليلة

المتبقية فى رأسه .. يرتدى أسمالاً ثقيلة تتنافر فى فظاظة مع طقس الليل الحار ..! حدق فيه مليًا .. الملامح ليست غريبة .. ولكنه فى نفس الوقت لايعرف من صاحبها ...

- نعم؟ ..

- ألا تعرفنى؟ ..

- لم يسبق لى شرف التعرف إليك! ولعلك أخطأت طريقك إلى شخص آخر ..

- ولكنى أعرفك ... وأنت من أقصده! .. ولا يمكن لصداقة طويلة كصداقتنا أن تنسى بهذه السهولة ...

انتابه شك حذر وداخلته الهواجس .. ربما كانت وسيلة مبتكرة للاحتيال .. وبسرعة أغلق الباب وهو يهتف فى حدة : آسف! ..

توقف مكانه وراح يصغى بانتباه ... لم يسمع حركة أقدام .. فلجأ إلى العين السحرية بالباب وراح ينظر من خلالها .. وأزعجه أنه لم يجد أحداً هناك ..

فى حذر شديد فتح الباب وأطل برأسه .. لم يكن هناك أى أثر للطارق ..

لايمكن أن يكون قد مضى بهذه السرعة! ..

عاوده مرة أخرى تصور أن الوهم يخدعه .. (قال له طبيبه أن أحلام اليقظة تتجسد أحيانا .. ولكنه لم يصدقه) ..

اتجه الى الحمام وغمر رأسه بالمياه الباردة .. وراح يجففها بالمنشفة عائداً إلى الشرفة ووقف بجوار السور يستنشق الهواء بقوة .. ولكنه تجمد مكانه حين نظر إلى الرصيف المقابل فى الشارع .. كان الرجل النحيل هناك يقف فى مواجهته محملقا فى شرفته .

غمره العرق البارد . . ثم انسحب الخوف ليحل محله غضب شديد حين رآه يشير له بابتسامة مخبولة أن يأذن له بالصعود . . . بادله على الفور إشارة الموافقة وقد قرر أن يؤدبه . . . سأضربه! أجل . . . لابد أن أعلمه كيف يسلك الإنسان المتحضر . .

أسرع إلى الباب ووقف ينتظر الطرقات . .

لم تمض ثوان . . حتى سمعها . . فتح الباب بسرعة . . ثم تسمر وهو يشهق . . كان صديقه العتيد ذو الجسم البدين . . والشعر الكثيف يتدلى على جبينه . . يهدر وهو يدخل فى ألفة :

- ماذا بك الليلة . . تريد أن تلعب أو أنك تعانى من مرض ما ؟

- ليس بى أى شىء . . .

- إذاً فكيف تغلق بابك فى وجهى حين فتحت لى فى المرة السابقة؟

هتف محتجا وكأنه يصرخ : لم تكن أنت؟

ضحك الصديق وهو يعلق ساخراً : لعله طيفى إذاً!

غمغم وهو يمضى فى إثره الى الشرفة وفرائصه ترتعد : . . . أجل . . ربما كان طيفك .

كلمات من دفتر قديم :

وإني وإن كنت الأخير زمانه

لآت بما لم يستطعه الأوائلُ

«أبو العلاء المعرى»

سكون

انتهى الصيف وأقفر الشاطئ ! وأطفأت الشمس اشتعالها فى مياه أيلول . . ليقبل تشرين . . رقيقا وادعاً متعما بأشجان الذكريات . . .

على الرمال تناثرت بقايا الموسم المنصرم . . طيارة ورقية تمزقت خيوطها واشتبكت بقارب قديم مقلوب . . . وكرة مثقوبة . . وتنكات فارغة . . ومضرب كرة مكسور . . ومئات . . آلاف من آثار الأقدام . . .

. . . أى أثر من هاتيك الآثار طبعته قدماها؟ . .

وحده . . البحر يهدر . . ولكنه لايجيب! . .

جلس القرفصاء عند نهاية الخط المبتل فى ملتقى الرمال الجافة بالموجات المنحسرة . . وأحاط ركبته بزراعيه . . ونظر إلى البحر . . تسمرت عيناه بالأفق الذى بدا قوساً يحدد اللانهاية . . لم يكن

يحلم بأن يجدها .. فقد أخلف الموعد! وكان موعدهما أن يلحق بها فى منتصف آب ...

يذكر تلك الليلة .. حين أقرأها البرقية التى تستحثه على الرحيل ....

ـ أو تتركنى بهذه السرعة؟

ـ كما ترين .. ليس الأمر بيدى!

ـ أتراك مللت قصتنا؟

ـ لا تخلطى الأمور .. أنذرتك سابقاً بأن عملى له الأسبقية قبل أى شىء!

ـ لا تشيئنى .. فأنا لست مجرد شىء! ..

ـ لا تأخذى الأمر من تلابيب التربص ...

صمتت طويلا دون أن تنظر له .. وأخيرا همست :

ـ متى أراك ثانية؟ ...

ـ موعدنا ليلة المنتصف من «آب» المقبل ...

.. أقبل آب وانتصف ثم رحل ... وانتصف بعده أيلول ... ثم أقبل تشرين .. ذبلت زهور وصوّحت .. وسقط الكثير من أوراق الشجر .. ليرصف الدروب بصفرة الجفاف ...

... نسمات الخريف .. وخفقات الحزن ... تصنعان الذكريات ...

أراح رأسه على ركبتيه المضمومتين .. ليمنع تحول الغصة

المضطربة فى حلقه إلى دمعة تنهمر بالحسرة على وجنته ..

كم تشدق بمقولته الأثيرة : أن تندم على مافعلت خيرٌ من أن تتحسر على مالم تفعل!

وهو أن يقف على حافة الحسرة ..

تجاوزت الأمواج مدى ارتدادها الرتيب وبدأت تضرب فى قدميه ..

ـ لماذا لم تأت فى الموعد؟ ..

انتفض مبغوتاً ... واستدار .. ليجدها ...

تقف خلفه مضمومة الذراعين إلى الصدر .. وتعبره نظراتها إلى البحر ...

... أغمض عينيه لحظة وهو يتساءل : تراه قد أغفى فى جلسته ويحلم الآن؟ ..

كلمات من دفتر قديم :

لا تسألينى فكم أهل الهوى سألوا
هل يصدق الدهر فيما رسم الأملُ
وهى تطول بأحلام الهوى الأجل
لا تسألينى فإنى خائف وجلُ
لاينقص البدر إلا حين يكتملُ

«صالح جودت»

تخاطر!

ترك الحفل الصاخب وخرج إلى الشرفة .. واستنشق نسمة الليل الصيفية بعمق ونهم .. داعبت أنفه مع رقة النسمة رائحة زهر وخضرة تملأ الحديقة ...

لم تكن الحديقة مظلمة تماماً .. فهناك بين الشجيرات تناثرت مصابيح ملونة تعطى الحفل بالداخل امتداداً يوحى بجو المهرجان ..

لكنه لم يكن مهرجاناً .. ولا توجد أى مناسبة يقام من أجلها احتفال من أى نوع ... ولكنهم هؤلاء الناس!! (تعجب فى داخله متذكرا أنه رغم كرهه واحتكاره لأصحاب الحفل .. جاء .. لمَ؟ .. لايعرف) .. وقد أمضى بعض الوقت بالداخل وسط الموسيقى والضحكات والأنفاس المختلطة ورائحة العرق التى لم تفلح أثمن العطور الباريسية فى إخفائها ...

كانوا قد رقصوا طويلا على أنغام موسيقى ذات إيقاع زنجى لاهث .. ومع كلمات أغنية يرددها شاب يتلوى ويقفز ويصرخ ... لم يشترك فى الرقص ولم يصغ للغناء فقد انتحى ركنا منعزلا ولكنه يصلح للفرجة .. وراح يجيل بصره مراقباً تلك المجموعة الفاخرة من رجال الأعمال وسيدات الحياة المخملية ... ومن بين الوجوه التى تتقاطع حركتها فى عينيه .. رآها ...

مثله تماما كانت تكمن فى ركن مقابل ... منفردة بنفسها .. لا تنظر فى اتجاه بعينه ولكن ابتسامتها المعلقة على وجهها تشى بالملل الذى تعانيه ..

كانت العينان أجمل ما رأى من عيون .. ورغم بعد المسافة نسبيا إلا أنه ميز لون إنسانى العينين ...

عينان خضروان تنعكس فيهما أشعة الثريات المصنوعة من أعلى أنواع البللور .. ويختلط بريقهما الآسر بطبقة من دمع جامد كالدر ..

تذكر لحظتها ماقرأه مرة فى «ألف ليلة» : (ونظر إليها نظرة أورثته ألف حسرة) ... كان يسخر من العبارة ويتندر بها فى جلسات السمر مع أصدقائه ...

الليلة فقط أحس باقترابها من الواقع ...

التقت النظرتان لأقل من الثانية .. وأحس بقلبه يعتصره الألم .. هذا النوع من الألم الذى يدفع بأمواج الشجن الغير مبررة!

وحين أغمض عينيه للحظة وفتحهما ليعيد النظر ... لم تكن هناك ..

خرج من مكمنه واختلط بالضيوف يبحث عنها ... وحين لم يجدها أصابه مايشبه المس فسأل عنها بلا حرج .. هز الساقى

كتفيه ثم غمغم فى حياد : ربما انصرفت ياسيدى! وهرع من فوره إلى الشرفة . . . ثم تركها إلى الحديقة . . .

وتحت تلك الشجرة . . . أراح ظهره إلى الجذع . . وأطبق جفنيه وراح يمارس تلك اللعبة التى قرأ عنها فى كتاب «التخاطر عن بعد» . .

المسألة لاتحتاج لأكثر من قدرة على التركيز . . أن تحصر تفكيرك بكل قواك فى شخص بالذات . . وحين يتم الاتصال . . يتصل الحوار . . .

فى ظلمة الإغماض . . . استعاد الوجه والنظرة والملامح والعينين الخضراوين وأحس بها تقترب . . . وتدنو . . وتكبر . . وتملأ رأسه بالكامل . . .

وهمس : أنتظرك فى الحديقة . . .

وفتح عينيه . . على الصوت يناديه : أرهقتنى فى البحث عنك . . . ماذا تفعل هنا؟

. . . كانت زوجته . . .

زفر بيأس ثم غمغم يرد عليها : لا شىء . . فقط أحاول أن أجرب التخاطر .

- تريد الاتصال بمن؟ . .

- بك طبعاً ياعزيزتى . . . قالها . . . ثم ارتد إلى الحفل الصاخب .

كلمات من دفتر قديم :

«الجبل يبدو أصغر كثيراً . . حينما تتركه خلفك»

«مثل صينى»

غريب!

أضيئت الحروف المثبتة فى سقف المقاعد . . فى عبارتين متجاورتين

أربط حزام المقعد . . . امتنع عن التدخين . . .

ثم انبعث صوت المضيف ينبه المسافرين إلى قرب انتهاء الرحلة ويناشدهم الالتزام بكل تعليمات الأمان . . .

ساعتها فقط انتبه من غفوته . . ونظر حوله . . لم يدرك فى البداية أين هو . . . حتى تعرف على ملامح الطائرة بعد لحظات . . وحين أدرك ذلك غمرته دهشة عميقة . . . وترنح فى رأسه سؤال : ما الذى أركبنى الطائرة . . . وإلى أين هو ذاهب ؟! . .

انحنت عليه المضيفة الحسناء مبتسمة برقة وهى تغرد هامسة :

- حزام مقعدك ياسيدى!

وحين نظر إليها ورقصت فى عينيه تلك الدهشة التائهة . . . اتسعت ابتسامتها ومدت ذراعيها لتحيط خصره بحزام الأمان ثم

توصده . . . وتغرد مرة أخرى : الحمد لله على السلامة . . ثم تمضى . .

أهو مسافر بالفعل؟ . .

واضح أن هذا هو مايحدث . . ولكن ! . . لم لا يذكر شيئاً؟ . . لم لايعرف إلى أين تأخذه الطائرة ومن أين ركبها؟

لم يرد أن يرهق ذهنه بحيرة تتوالد فيها الأسئلة كتوالد البكتريا فى العفن . . تحسس جيب سترته . . ثم مدها إلى جيبه الداخلى حيث كان جواز السفر وتذكرة الطائرة . .

قبل أن يفتح الجواز برق فى رأسه خاطر يدعوه لأن يختبر ذاكرته . .

- من أنت؟ . .

- أنا لم أفقد الذاكرة بعد . . اسمى . . .

وجد الاسم الذى فاه به يطابق الاسم الموجود بالجواز وداخله الارتياح . . ونظر إلى الصورة وهنا هاجمته الصاعقة . . فالصورة الموجودة بالجواز ليست صورته!

وهتف بصيحة لا إرادية .

- صورة من هذه؟!!

لفتت صيحته المكتومة نظر المضيفة الحسناء فهرعت إليه بملامح متسائلة . . وانحنت عليه هامسة . . .

- أيزعجك أمرٌ ما ياسيدى؟ . .

- أجل! الصورة التى فى الجواز ليست صورتى . .

- أتسمح لى أن أرى . . .

أعطاها الجواز مفتوحاً . . تناولته . . نظرت إلى الصورة . . ثم نظرت إلى وجهه متفرسة . . وواجهته بملامح تعلوها ابتسامة متسامحة مع تغطية دهشة انحصرت فى الحاجبين . .

- عفوا ياسيدى . . إنها صورتك بالتأكيد! . .

سقط شيء ما فى جوفه واستقر ثقيلاً موجعاً فى أحشائه . . .

- اعطنى مرآتك!

طلبت منه أن ينتظرها للحظة . . وغابت اللحظة ثم عادت تقدم له المرآة وقد غابت ابتسامتها . . ولمح من وراء كتفها زميلاتها وزملاؤها يتناوبون النظر إليه . .

أمسك بالمرآة . . وحدق فى الوجه الذى يطالعه . . ثم صرخ . .

- هذا ليس وجهى!

خارج الطائرة . . كانت قطرات البرد تتكاثف فوق الجناحين . . . وكانت الشمس ساقطة فى الفراغ . . .

كلمات من دفتر قديم :

إن حالى كدقيق بين شوك بعثروه

ثم قالوا لحفاة يوم ريح اجمعوه

«عبد الحميد الديب»

لـــون!

لون القمر فضى . . لون الشمس ذهبى . . .

همس يصحح له معلوماته : القمر والشمس لا لون لهما . . وما تراه هو ضوء الشمس وسنا القمر . . .

ـ لا أريد سفسطة . . كل الأشياء لها ألوان . .

كنت أستلقى على الأريكة الأرجوحة حين بذغ القمر فى عينىّ . . كان يبتسم . . أجل فله وجه . . . وفى الوجه عينان . . . وللعينين ابتسامة! كانت هناك هالة من التألق الماسى تحيط بطبق من الفضة الخالصة . . ينسكب عنه شلال من ضوء ليلى أزرق وفى الصباح التالى استيقظت على ذوب العسجد فى مقلتى . . ورأيت الكون أشقر . . .

سربلته الشمس بغلالات من ألق ذهبى . . .

أغمضت الجفون على فضة الليل . . وفتحتها على ذهب النهار . . . فما الذى يغضبك؟ . . أشاحت عنه بوجهها . . . فتطايرت خصلة من شعرها راقصتها نسمات نزقة . . . وهتف . . .

بل لون الصيف أبيض . . . ولون الخريف ليلكى . . أما الشتاء فلونه رمادى . . .

وبعده ربيع أخضر . . .

عشت صيفاً لم تستطع فيه زرقة البحر أن تغلب نصاعة الرمال الجيرية . . وكان الحر يتساقط قطرات من لزوجة رطبة بين خصلات الشعر الملفوفة على الجباه . . . والملح الذائب فى زبد الأمواج يحشو جراح القلب القديمة فيلهبها وتصحو . . يقطر منها دم الصبوة والذكريات . . .

وحين أقبل الخريف كنت أرى مايتسلل خلفه!

أحب الليلك . . ولكنى أخشى الخريف . . فقفزت إلى بحيرة السلوان . . . دو أن أتعلم السباحة فاجتذبنى التيار إلى صخرة المصير . . وخلفها كانت السهول الرمادية . . حيث يتساقط المطر ثلجاً وتدفن الأمنيات إلحاحها تحت دثار الدفء الموهوم . . وهناك يقبع الصبر كحامل الأختام فى بلاط ملك عجوز امتد به العمر إلى أرذل السأم . . . ويوم شعشعت الخضرة على مرمى البصر وتواثب الفتيان إلى المرابع يغنون لليل والفجر والفتيات . . لم أصدق عينىّ . .

ضحك فجعلت ترمقه صاحبته الغضبى . . .

ـ ماذا يضحكك؟!

ـ ألا ترين؟ . . أنت مصابة بما يسمونه عمى الألوان . . لذا لاتستطيعي التمييز بينها . . صرخت فى إصرار هستيرى :

ـ لكنى أراك . . أرى لون شعرك الأسود . . وعينيك البنيتين . . وسترتك الزرقاء . . لوح لها وهو يمضى . .

ـ محاولة جيدة يازرقاء . . لكنّ شعرى لونه بنى . . وعينىّ سوداوان . . وسترتى خضراء . . وداعاً . . .

نظرت تلهث فى أعقابه . . . (تراه على صواب)؟ . . رفضت مناقشة السؤال وترقرقت فى عينيها بعض قطرات الدمع . . .

. . . وكان لون الدموع . . كلون المطر . . .

كلمات من دفتر قديم :

كلفٌ بغزال ذى هَيَف — خوف الواشين يشرده
نصبت عيناى له شركاً — فى النوم فعزّ مصيده .

«الحصرى القيروانى»

أسامة أنور عكاشة

- من مواليد طنطا بمحافظة الغربية .
- من أسرة تعيش فى مدينة كفر الشيخ .
- حصل على ليسانس الآداب ـ قسم الدراسات النفسية والاجتماعية ، فى جامعة عين شمس .
- كتب القصة القصيرة والرواية ونشر فى الدوريات الأدبية حتى منتصف السبعينات .
- تحول إلى كتابة الدراما للتليفزيون من عام ١٩٧٧ .
- كتب للتليفزيون ٢٦ مسلسلا و٢٠ سهرة ، وللسينما ٥ أفلام .
- صدر للكاتب عدة مؤلفات منها : خارج الدنيا ـ أحلام فى برج بابل ـ مقاطع من أغنية قديمة ـ الاسكندرانى ـ ليالى الحلمية ـ الناس اللى فى الثالث

ودار نهضة مصر أصدرت للمؤلف ثلاثة كتب هى :

أوراق مسافر

تباريح خريفية

همس البحر

الفهـرس

مع تحياتي علي مولا



ما يهمنى فى الحقيقة ... أو قل انه يؤرقنى فهو أن يؤخذ هذا اللون من الكتابة على منحى لم اقصده على الإطلاق ... وهو التسلية أو الترويح .

وأبادر بالقول بأننى لست من التسلية أو الترويح او الكتابات الخفيفة عموما ... فلها بلا شك جمالها الخاص ... لكنى فقط انبه لحقيقة أن الكتابة فى هذا اللون

.وهو جديد فى زعمى . بكل مشقتها بعيدة تماما عن العفوية والتلاعب بالألفاظ واصطناع الطرافة ...

فأنا لم أكتبها بهدف أن أسلى أو أزجى الوقت... ولكنى كتبتها قاصداً أن أتلمس بقلمى أوتاراً فى قلب القارئ... نعيده إلى لحظة ذكرى... أو خفقة هاربة من سجن القلب... أو ربما ترسم مجرى على الخد لدمعة حنين تشفى بعضا مما خلفته الأيام من جراح ..

اسامة أنور عكاشة

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

امتع الأوقات مع منتديات ليلاس الثقافية